قراءةٌ في كتاب الاستعمار الكتاب الأسود (1600-2000 م)

أ.د. عمّار خالد رمضان[1]

الملخّص

يقدّم الكتاب رؤيةً شاملةً لتاريخ الاستعمار، مع أمثلةٍ تفصيليّةٍ توضّح آثاره المدمّرة على الشعوب المستعمَرة. يمكن للقارئ من خلال هذا الجهد العلميّ الجماعيّ فهم كيفيّة تشكيل الاستعمار للعالم الحديث، واستخلاص الدروس والعِبر لفهم الحاضر.

الكتاب هو عملٌ موسوعيٌّ نقديٌّ أشرف عليه المؤرِّخ الفرنسي مارك فيرو بمشاركة فريقٍ من الباحثين، ويغطّي أربعة قرونٍ من تاريخ الاستعمار الأوروبي (١٦٠٠-٢٠٠٠). يهدف إلى كشف الجرائم والآثار المدمّرة للاستعمار على الشعوب المستعمَرة، مع تحليل تحوُّله من احتلالٍ عسكريّ إلى هيمنةٍ اقتصاديّة وسياسيّة. حيث يكشف الكتاب عن استخدام العنف الممنهج، بما في ذلك الإبادة الجماعيّة، والعبوديّة، والعمل القسري، بوصفها أدواتٍ أساسيّة لفرض السيطرة. مع إعطاء بعض الأمثلة: جرائم بلجيكا في الكونغو، ومجازر فرنسا في الجزائر، ومعاملة البريطانيين للهنود.

الكتاب مرجعٌ رئيسٌ لفهم تاريخ الاستعمار بوصفه جريمةً إنسانيّة منظّمة، وليس حقبةً ماضيّة؛ إذ إنّه يسلّط الضوء على الجوانب المظلمة للاستعمار الأوروبي عبر أربعة قرونٍ، مُقدِّمًا تحليلاً نقديًّا لآثاره المدمّرة.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، السود، البيض، العبيد، الكتاب الأسود.

---

١. متخصّص في التاريخ المعاصر/ جامعة البصرة / كلية الآداب.

تأليف: مجموعة من المؤرّخين

بإشراف: مارك فيرو

ترجمة: محمد صبح

مراجعة: زياد منى

الناشر: الدار الأهليّة للنشر والتوزيع

تاريخ النشر، ٢٠٠٨.

التصنيف: يُصنّف الكتاب تحت فئة السياسة والتاريخ

أولًا: هدف الكتاب

من خلال قراءة الكتاب، نستطيع القول بأنّ هدف الكتاب ـــ كما عبّر عنه المؤرخ والمخرج السينمائي الفرنسي مارك فيرو ـــ هو تتبع أثار صفحات المشروع الاستعماري ومظالمه وممارساته السيئة، فضلاً عن الخطابات التي أسبغت الشرعيّة عليه، واستمرار تأثير الاستعمار على الدول المستعمَرة حتى بعد انتهاء الحقبة الاستعماريّة. والتأكيد على أنّ الاستعمار، تلك الظاهرة القاتمة التي طغت على مساحاتٍ واسعةٍ من العالم لقرونٍ وتركت جروحًا عميقةً لا تزال آثارها باديةً للعيان حتى يومنا هذا، كان أكثر من سيطرةٍ سياسيّةٍ واقتصاديّة؛ فهو نظامٌ قائمٌ على الهيمنة الثقافيّة، وتشويه الهويّات، واستغلال الموارد البشريّة والطبيعيّة. فضلاً عن أنّ الكتاب يهدف إلى توثيق الجرائم التي ارتكبت خلال الحقبة الاستعماريّة، وتوعية الأجيال الجديدة بتاريخهم وتشجيعهم على بناء مستقبلٍ أفضل.

ثانيًا: أهميّة الكتاب

يقدم الكتاب رؤيةً نقديّةً للاستعمار، مع التركيز على آثاره المدمرة على المجتمعات المستعمَرة، ويساعد القراء على فهم كيفيّة استمرار تأثيرات الاستعمار في صياغة شكل العالم الحديث. ويكشف عن الجوانب المظلمة للاستعمار بمختلف أشكاله ومرتكزاته وسياساته. فالكتاب أداةٌ مهمّةٌ لفهم هذا الإرث المعقّد، والعمل على بناء مستقبلٍ أكثر عدالةً ومساواة.

ويمكن القول بأنّ الكتاب يعد مرجعًا قيمًا للباحثين والمهتمين بتاريخ الاستعمار؛ إذ يتضمن الكتاب توثيقًا للجرائم التي ارتكبت خلال الحقبة الاستعماريّة. كما يسعى الكتاب إلى محاسبة

الجناة وتقديم الاعتذار للضحايا. يعدّ الكتاب سجلاً تاريخيًّا يوثّق الجرائم والانتهاكات التي ارتكبتها قوى استعماريّة، بما في ذلك الإمبراطوريّات الإيبيرية. يضمّ الكتاب مجموعةً من البحوث والمقالات والوثائق التاريخيّة التي تكشف عن الجرائم البشعة التي ارتكبت خلال حقبة الاستعمار. هذه الوثائق، التي غالبًا ما كانت سريةً، تحتوي على تفاصيل صادمةٍ حول أعمال القتل، والتعذيب، والاستغلال الجنسي، والتهجير القسري، وغيرها من الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان. بما في ذلك المجازر الجماعيّة، وتجارة الرقيق، واستغلال الموارد الطبيعيّة للشعوب المستعمرة. كما يسلط الضوء على كيفية تحول الاستعمار من احتلالٍ عسكريّ إلى أشكالٍ جديدةٍ من الهيمنة الاقتصاديّة والسياسيّة تحت مسمى (المساعدات) للدول النامية.

ثالثًا: مزايا الكتاب

كتاب (الاستعمار الكتاب الأسود) هو عملٌ موسوعيّ يغطّي تاريخ الاستعمار من عام ١٦٠٠ إلى عام ٢٠٠٠م، ويقدم تحليلاً شاملاً لتأثيرات الاستعمار على الشعوب والمجتمعات المستعمَرة. أشرف على الكتاب المؤرّخ الفرنسي مارك فيرو، وشارك فيه مجموعةٌ من الباحثين الذين قدّموا رؤى مختلفةً حول الاستعمار وأشكاله عبر القرون، بالاعتماد على وثائق أرشيفيّةٍ وشهاداتٍ نادرةٍ، ورؤيةٍ شاملةٍ تربط بين الماضي والحاضر، لكنّها تركز على الجانب الأوروبي دون إعطاء مساحةٍ كافيةٍ لروايات الضحايا. يغطي الكتاب مدّةً زمنيّةً طويلةً تبدأ من القرن السابع عشر، وتنتهي في القرن العشرين، مع التركيز على جرائم الاستعمار وتأثيراته المدمّرة على الشعوب المستعمَرة، مع إقرارٍ بعدم جواز اختزال الاستعمار بمضاره فقط.

رابعًا: محتوى الكتاب

يغطي الكتاب الفترة من ١٦٠٠م إلى ٢٠٠٠م، مع التركيز على جرائم الاستعمار، بما في ذلك المجازر الجماعيّة، وتجارة الرقيق، واستغلال الموارد الطبيعية للشعوب المستعمَرة. قُسّم الكتاب الى مقدمتين: مقدمة الطبعة العربيّة، ومقدمة بعنوان السياسة الاستعماريّة والوجه الآخر للاستعمار، وخمسة محاور أو فصول أساسيّة:

١. الإبادة.

٢. تجارة الرقيق.

٣. هيمنة ومقاومة.

٤. مصير المرأة.

٥. رؤى وخطابات.

فضلاً عن تعريف بالمؤلِّفين والهوامش باللغة العربيّة والهوامش الأصليّة، وثبت الأعلام (مختصر)، وثبت جغرافي (مختصر). يتناول الكتاب ضمن هذه العناوين الرئيسة دراساتٍ مختلفةً حول الجذور التاريخيّة للاستعمار وظهور الاستعمار الأوروبي مع اكتشاف الأمريكيتين، وبدء التنافس بين الدول الأوروبيّة (إسبانيا، والبرتغال، وبريطانيا، وفرنسا) للسيطرة على الموارد وإبادة السكان الأصليين في الأمريكيتين، ونماذج مختلفة من الاستعمار البريطاني، الفرنسي، الهولندي، والإسباني، بالإضافة إلى الاستعمار الياباني في آسيا. كالاستعمار البريطاني في الهند وفرض سياساتٍ اقتصاديّة أدت إلى مجاعاتٍ كبيرة، والاستعمار البريطاني في مصر، والاستعمار الفرنسي في الجزائر وفي الهند الصينيّة (فيتنام) واستغلال العمّال المحلّيين في مزارع المطاط. كما يتضمن الكتاب فصولاً عن حركات المقاومة ضدّ الاستعمار، مثل ثورات الشعوب في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وتأثير الاستعمار على المرأة في المجتمعات المستعمَرة.

يقدم مارك فيرو في مقدمته (السياسة الاستعماريّة والوجه الآخر للاستعمار) لكتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود)، تحليلاً عميقًا لتأثيرات الاستعمار وآثارها الممتدة حتى العصر الحديث، ويطرح العديد من التساؤلات حول طبيعة الاستعمار وأشكاله المختلفة، ودوافع الدول الاستعماريّة، وعواقب السياسات الاستعماريّة على المجتمعات المستعمَرة. ويرى فيرو أنّ أحداث ٢٠٠١م، واضطرابات الجزائر، ومظاهر الندم في فرنسا، هي صدماتٌ ارتداديّةٌ للحقبة الاستعماريّة والسياسة الاستعماريّة. مؤكّدًا أنّ الكتاب الأسود يفرض نفسه على الواقع الراهن، حتى وإنْ كان الاستعمار لا يختزل في مضاره فقط.

ويقارن فيرو بين الاستعمار والنظم الشموليّة، ويشير إلى وجود قرابةٍ بينهما. ويوضّح أنّ المستعمَر لا يتكلّم عن الاستعمار بقدر ما يتكلّم عن السياسة الاستعماريّة، وهو مصطلحٌ متأخر. يشير إلى أنّ السياسة الاستعماريّة بقيت بعد زوال الاستعمار، وأنّ العنصريّة استشرت في البلدان المستعمِرة. كما يشير فيرو إلى أنّ أشكال الاستعمار وأهدافه والصورة التي اتّخذتها هذه الهيمنة والملامح المتمايزة للبلدان المحرَّرة، تشكّل مجموعةً ذات متغيراتٍ متعدّدة. ويوضح أنّ العولمة المتزايدة والمتسارعة أفضت إلى ظهور نضالٍ تضامنيٍّ ضدّ الاستعمار الجديد، والعنصرية، وهيمنة المصارف الكبرى.

ويشير فيرو إلى أنّ دوافع التوسع الاستعماري تنوّعت في التاريخ، ولم تكن نفسها لكلّ دولة. ويوضح أنّ الحقبة الإمبرياليّة تميزت بدوافع اقتصاديّة جديدة، مثل الحصول على موادّ أوليّة رخيصة، والتمتّع بأسواق لتسويق المنتجات الصناعيّة. مشيرًا إلى أنّ كبار رجال المال هم محركو السياسة الإمبريالية. يوضح فيرو أنّ الاستعمار تضمّن جرائم ضدّ الإنسانيّة، مثل إبادة السكّان في الكاريبي وأمريكا الشماليّة، والمذابح في إفريقيا، وتجارة العبيد. ويشير إلى أنّ الاستعمار الأوربي كان يتخلّص من غير المرغوب فيهم عن طريق نفيهم إلى المستعمرات. ويرى أنّ هناك حاجةً إلى مراجعة التاريخ الاستعماري وتحليل السياسات الاستعماريّة.

المحور الأول

جاء الفصل الأول من الكتاب بعنوان (الإبادة)، وتناوب على كتابته ثلاثة محرّرين، متناولاً الإبادة التي مارسها المستعمِر الأوروبي ضدّ السكّان الأصليين في منطقة الكاريبي وأمريكا الشمالية وأستراليا. حيث مثّلت رحلة البحّار الإيطالي كريستوفر كولومبوس الاستكشافيّة الثانية في نهاية عام ١٤٩٣ إلى جزيرة هايتي، التي أعيدت تسميتها الى (إسبانيولا)، مع وصول أسطول مؤلّف من سبع عشرة سفينة، تقّل ما بين(١٢٠٠- ١٥٠٠) رجلاً، مثّلت هذه الرحلة من وجهة نظر الكاتب (إيف بينو)، علامةً لتدشين استعمارٍ أوروبي سيمتدّ قريبًا إلى كلّ القارة الأمريكية. والذي تميّز منذ البداية بعنفٍ لا حدّ له ضدّ الشعوب المغزوة التي نوى إرغامها على إنتاج ما يطلبه المستعمِر.

فمنذ رحلته الأولى، رسم كولمبوس برنامجه على أنّ سكّان الجزيرة، كما كتب: «قابلون أنْ يؤمروا، ولجعلهم يعملون، ويبذرون ويقومون بالأعمال الأخرى، وأنْ يُعلَّموا ارتداء الملابس والأخذ بعاداتنا»[١]. ومنذ تاريخ (١٨/١٢/١٤٩٢)، كان يعدّ شعب الأراواك الأصليين (الشديدي الحفاوة)، ـــ الذين وصفهم كولومبوس بالسذاجة والكرم لأنّهم عرضوا بضائعهم على الجميع ليتقاسموها ـــ تابعين لملوك قشتالة. مع أنّ زعيم هنود التاينو الملك غواكاناغاري (Guacanagari)، الذي كان أحسن استقباله، لم يقل أو يفكر قطّ بشيءٍ كهذا. إلّا أنّ البرنامج المرسوم، سريعًا ما طُبّق، وأجبر (الهنادرة)[٢] على زراعة مختلفة لإطعام الإسبان، كما أجبروا على بناء البيوت بالحجارة، أو بناء مدن المحتلّين. أما الأعمال الأخرى غير المحددة، فكانت تشمل البحث عن الذهب واستخراجه؛ لأنّه كان هدف الرحلات الأوربية الأول إلى ما وراء البحار عندئذ. وكان ذلك عملاً مرهقًا، بوتيرة

١. إيف بينو، تحطيم الهنادرة في منطقة الكاريبي، في: (الكتاب الأسود)، ص٥١، وما بعدها.

٢. جمع (هندري) أي (هنود حمر)، وهو المصطلح الذي اعتمده مترجم الكتاب. الباحث.

عملٍ غير معتادةٍ لشعب هايتي، غير متناسبٍ مع طريقة حياتهم، وحتى مع قدراتهم الجسديّة؛ لذا في غضون عقدٍ من الزمان، تم القضاء على السكّان الأصليين بسبب الحرب والقسوة والاستعباد والمرض.

لقد حاول الهنادرة مقاومة الغزاة، وكان كولومبوس قد وعى ذلك لدى عودته في ٢٧ تشرين الثاني ١٤٩٣. فقد ترك كولمبوس في كانون الثاني حوالي ٣٩ رجلاً، مزودين بالذخيرة والمدفعيّة والمؤونة، مع تعليمات بالتبادل والتداول مقابل الذهب. وعندما عاد كولومبوس من إسبانيا في تشرين الثاني عام، علم أنّ جميعهم قد ماتوا، وأنّ الحصن أُحرق بالكامل. وكان اثنان من رؤسائهم ذهبا للبحث عن مناجم الذهب في سيباو (Cibao) بالريف، وفي الطريق قتلا هنديًا على أرض (الكاسيك) الملك كاونابو (Caonabo)[١]، الزعيم الأول لهذه المنطقة والحاكم الذي كان غواكاناغاري يدين له بالولاء. فما كان من كاونابو إلّا أن قتلهما. ويسجل التاريخ أنّ الإسبان قُتلوا؛ لأنّهم أساءوا معاملة السكّان المحليين؛ فقد اغتصبوا ونهبوا وسلبوا وأساءوا معاملة مضيّفيهم. ومع ذلك، إذا كانت مثل هذه الانتهاكات المحّلية قد أدّت إلى وفاتهم، فكان ينبغي للزعيم المحلي أنْ يأمر بقتلهم.

يوضّح الكاتب، أنّ أسباب هذا التصادم الأول مع الغزاة لم يكن مدفوعًا فقط بالجوع اللعين للذهب، بل أيضًا بالجوع اللعين للجنس. إذ لم يكن نهم الاستعمار الأوربي للاغتصاب أقلّ من نهمه للقتل، كما لو أنّ الإسبان كانوا يأخذون بثأرهم من كاثوليكيّةٍ متزمتة، بانتهاك كلّ قاعدةٍ أخلاقيةٍ حيال الشعوب المسمّاة (وثنية). وسيرفع بعض المبشّرين أصواتهم ضدّ هذه الممارسات الاستعماريّة، ولن يستطيع بعضهم الآخر مقاومتها. وتقرير المبشّرين الدومينيكان في عام (١٥١٩) دامغ بهذا الشأن؛ إذ يسرد كيف كان رؤساء العمال الأسبان يرسلون الأزواج إلى المناجم، بينما كانوا هم أنفسهم (يضاجعون نساءهم)، ويجلدون الأزواج فيما لو سمحوا لأنفسهم بالاحتجاج. وإن تقارب هذه الأمثلة ليس له علاقة بأصل الفاعلين الذين يكونون مجرد أناس من العوام، أو من قليلي التربية؛ ففي الواقع أنّ التهتك الجنسي كان باديًا في كلّ شرائح المجتمع، سواء لدى الأفراد

١. وصف فرديناند كولومبوس كاونابو بأنّه «رجل كبير في السن، وذو خبرةٍ وذكاءٍ حادٍ ومعرفةٍ واسعة». كان قويًا وحازمًا وشجاعًا. وكان الزعيم الأعلى لقبيلة ماجوانا. كانت مستوطنته الرئيسة تقع على الجانب الغربي من سلسلة جبال كورديليرا الوسطى، وقد تأسست مدينة سان خوان دي ماجوانا الإسبانية هناك بعد خلعه. يُنظر للمزيد:

William Keegan and Betsy Carlson، The Stranger King، Times of the Islands-Spring 2007، https://www.timespub.tc/200704//the-stranger-king/

المثقفين حول كولومبوس، وفيما بعد لدى خشني الطباع. فتصرّف الأوروبيين، بصفةٍ عامة، وكأنّما لا يوجد لدى هذه الشعوب المسمّاة (وثنية)، أي نوع من التنظيم للحياة الاجتماعية والأسرية والجنسيّة. فضلاً عن، قدرتهم على الاعتقاد بأنّها الحقيقة. وبالفعل دخلت هايتي كلّها في الحرب صيف عام ١٤٩٤. مع أنّ القبائل الهنديّة، على اختلافها، كانت مستعدةً لاستقبال غرباء لبعض الوقت، لكنّها لم تفكّر قط بإعطائهم حقًّا في احتلالٍ دائم، أو بالعمل تحت إمرتهم.

ولبلوغ ذلك شن كولومبوس حربًا لا هوادة فيها، وسحق الهنادرة في أذار عام ١٤٩٥، خلال معركة (لا فيغا ريـال). ومع أنّ عدد القتلى غير معروف إلّا أنّ الكاتب رجّح أنّه كان كبيرًا. وفي محاولةٍ منهم لاتّباعهم استراتيجيّة الأرض المحروقة فكان كثيرٌ منهم يموت جوعًا في الجبال. فضلاً عن ساعات العمل غير المحدّدة والمرهقة، كما لم يكن العمّال (التاينوس) آمنين على أنفسهم من اعتداءات رؤساء العمّال الأسبان (الأسياد). هذا فضلاً عن، انتشار الأمراض المعدية وبخاصّة الجدري؛ لأنّ المرضى الهنادرة كانوا لا يُعالجون منها؛ لذا لا يمكن تبرئة الإسبان من هذه الموجات الوبائيّة. وتظهر النتيجة من خلال أرقامٍ دامغة تناقص أعداد سكّان الجزيرة من (١١٠٠٠٠٠) مليون عند وصول كولومبوس، إلى أكثر من (٦٠٠٠٠) في عام ١٥٠٧م، وفي عام ١٥٢٠، لم يبقَ منهم سوى ألفٍ من الهنادرة في إسبانيولا، واختفوا تمامًا من بورتو يركو[١].

تلك هي عاقبة نظام العمل القسري الذي وصفه الكاتب بأنّه (نظام اعتقالي) بلغة العصر، والذي كان يتعارض مع تقاليد وطريقة حياة الهنادرة التاينوس وثقافتهم، وكان يحطم كلّ بنيتهم الاجتماعيّة. ويشير الكاتب إلى أنّ هايتي لدى وصول كولومبوس كانت مجتمعًا يرتكز على بداية تنظيم الدولة بخلاف كوبا أو الأنتيل الصغرى، وكان فيها زعماء كبار (كاسيك) مع رؤساء محليين تحتهم، إلّا أنّ الإسبان استعملوا مصطلح كاسيك للجميع.

ورجّح الكاتب فرضية أنّ كولومبوس توقّف في هايتي عوضًا عن كوبا؛ لأنّه وجد فيها سلطاتٍ راسخة، يمكن له التعامل معها، حتى ولو كان ذلك لاستخدامها في مآربه[٢]. وكان يسعى إلى تسخيرها للحصول على الذهب المرجو وجعل رعاياها يعملون لذلك؛ كان يريد منهم الاعتراف بسلطة التاج الإسباني العليا، ويرى من الضروري أيضًا أنْ يخلق للهنادرة حاجاتٍ جديدة بمساعدة زعمائهم، حتى يصبحون تابعين لإسبانيا لإشباعها. ولم ينسَ هدف تنصير السكّان، وهو الهدف

١. إيف بينو، تحطيم الهنادرة في منطقة الكاريبي، (الكتاب الأسود)، ص٥٣-٥٤.

٢. المصدر نفسه، ص٥٥.

الوحيد المصرّح به مسوغًا للاستعمار. لذلك حاول كولومبوس في البداية الحكم بصورةٍ غير مباشرةٍ بوساطة كبار الزعماء الذين كان يفرض عليهم إتاوات على شكل ذهبٍ ومؤنٍ، عليهم اختلاسها من السكّان ذلك أنّها كانت تحسب بطريقةٍ تتجاوز فيها كثيرًا قدرات الهنادرة.

لكن النظام لم يدم؛ إذ منذ الرحلة الثالثة لكولومبوس (١٤٩٨ - ١٥٠٠) يمضي في الخطّة التي ستفضي إلى نظام الأمريات (الأنكومينداس / Encomiendas)، وهو امتيازٌ يُعطى لهذا أو ذاك من الإسبان بعددٍ من الهنادرة، يتكفّل بتنصيرهم، ويستخدمهم في فلاحة أراضيه لقاء أجرة، كما تقول النصوص التي لن تطبّق هذا الشأن[١]. ولم يكن يُستثنى أحد من هذا التوزيع القسري، وحتى الزعماء. وكان في ذلك التحطيم الكلّي للنظام الاجتماعي الهايتي لصالح عبوديةٍ كانت حدودها الوحيدة إفناء الشعب المسخَّر. فما كان من الزعماء الذين بقوا أحياء إلّا استئناف النضال عندئذٍ. إلّا أنّ زوال الهنادرة السريع، الذين كانوا يشكّلون يدًا عاملةً شبه مجانيةٍ للمستعمرين خلق مشكلة. ولملء الفراغ تم استيراد عبيدٍ سود من إسبانيا؛ لأنّ العبودية كانت مستمرةً فيها؛ ولأنّ حالهم كعبيد جعلتهم قابلين للاستعمال كعمّالٍ زراعيين في الأندلس، وقد تكون لديهم بعض الخبرة في التعدين، وهو وضع في منتهى البساطة. وهكذا حلّ العبيد السود في عشرينيّات القرن السادس عشر محلّ اليد العاملة الهندريّة، وبينما تنتقل إسبانيولا خلال نصف قرن من إنتاج الذهب إلى إنتاج قصب السكر، أخذ العبيد يصلون من إفريقية مباشرة. والحال أنّ تعويض الهنادرة بالأفارقة ليس السبب الوحيد لعدم اكتراث المستوطنين إزاء إبادة الهنادرة، ولا السبب الرئيس. حتى فلاس كازاس يفسره هكذا: «ينتقل المستوطنون من جزيرةٍ إلى أخرى ومن أرضٍ إلى أخرى، وعندما ينهبون ويسرقون

١. إنكومينداً أو الأنكومينداس، هو نظام قانوني حاول التاج الإسباني من خلاله تحديد وضع السكان الأصليين. وكان هذا النظام قائمًا على ممارسة فرض الجزية على المسلمين واليهود أثناء فترة استرداد إسبانيا المسلمة. ورغم أنّ القصد الأصلي من نظام إنكومينداً كان الحدّ من إساءة استخدام العمل القسري (التقسيم الإداري) الذي تم استخدامه بعد وقتٍ قصيرٍ من اكتشاف الأوروبيين للعالم الجديد في القرن الخامس عشر، أصبح في الممارسة العملية شكلًا من أشكال العبودية. صُممت الإينكومييندا لتلبية احتياجات اقتصاد التعدين المبكّر في المستعمَرات الأمريكية. ومع الانحدار الكارثي في عدد السكان الهنود واستبدال الأنشطة التعدينيّة بالزراعة في أمريكا الإسبانية، فقد النظام فعاليّته، وتم استبداله تدريجيًا بنظام هاسيندا من العقارات. وعلى الرغم من أنّ الإينكومييندا لم يتم إلغاؤها رسميًّا حتى أواخر القرن الثامن عشر، فقد تم حظر منح الإينكومييندا الجديدة في مستعمرات إسبانيا في أيلول/ سبتمبر ١٧٢١. يُنظر للمزيد:

Britannica، T. Editors of Encyclopaedia (2024، September 17). encomienda. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/encomienda

ويخرجون ويقتلون كلّ الهنادرة في المكان، يذهبون للنهب والقتل في مكان آخر»[١].

ولم يقتصر الأمر على الإسبان، على ما يبدو. فمنذ بدأ الفرنسيّون والإنكليز سلوك طريق الاستعمار من دون التوقّف عن معارضة الإسبان، أخذوا يصطدمون بأصدقاء الأمس. وكانت مذابح الهنادرة في الأنتيل الكبرى، هذه الأثناء، قد أثارت انزعاجًا قويًا في أوروبا؛ ولذا أمرت التوجيهات الملكيّة الحكّام بمعاملة الهنادرة بلطفٍ وإنسانيّة، من دون إهمال السعي لتنصيرهم مع ذلك؛ وإذا ما تمّ ذلك يمكن لهم اكتساب حقوق المزارعين. إلّا أنّ ممثّلي القوتين في المكان، تصرّفوا في عام (١٦٢٦) بطريقةٍ جعلت فناء السكّان الأصليين وشيكًا. وسينشب صراع غير متكافئ مع انتصارات وهزائم وفترات هدوء وصدامات أخرى، لكن لم يعد لهذا الشعب في القرن الثامن عشر وجود. وهكذا خلق في جزر الأنتيل وضع لم يعدّ يسكنها معه إلّا المهاجرون المنحدرون من الأسياد الذين أتوا من أوربا، أو ذرية العبيد الذين جُلبوا من إفريقيا. وقد أُبيد السكّان الأصليون بلا شك؛ لأنّهم لم يشاطروا الأوربيّين إيديولوجيّة العمل التي تُدعى حضارة، كما لم يشاطروهم تقديس العمل الدؤوب الذي يتطلبه التراكم الرأسمالي السائد في قسمٍ كبيرٍ منه في هذه الجزر نفسها[٢].

أمّا المؤرخ والسياسي الفرنسي باب نادياي (Pap Nadiaye) فكتب تحت عنوان (إبادة هنادرة أمريكا الشمالية) أنّ العالم الجديد لم يكن جديدًا إلّا بالنسبة للأوربيين. فمنذ آلاف السنين كان البشر يعيشون في أمريكا الشمالية. ومن المؤكّد عمليًّا أنّ هؤلاء الذين يسمّون اليوم هنادرة، جاءوا من آسيا عبر البيرينجي (la Berengie)، وهي أرضٌ ممتدةٌ كانت تصل بشكلٍ دوري ألاسكا بسيبيريا حتى ما قبل عشرة آلاف سنة (في الموضع الحالي بمضيق وبحر بيرنك (Bering)، إذ استقرّت فيها جماعاتٌ من الناس قبل الهبوط إلى الجنوب بفضل ذوبان الجليد. وخلال عدّة قرون، هاجرت جماعاتٌ إلى أمريكا الشمالية، بينما اتّجهت أخرى أكثر إلى الجنوب، حتى أرض النار ((Terre de Feu، ولعلّ أول الأوربيين الذين استقرّوا في أمريكا الشمالية كانوا الإسكندنافيين، بداية القرن السادس، عندما استوطن أبناء إيرك لوروج (Erik le Rouge) القاطنين في غرينلاند (Groenland) لفترةٍ قصيرةٍ الأرض الجديدة (Terre Neuve).

في حين، لم يستقرّ الأوربيّون نهائيًّا في أمريكا الشمالية إلّا بداية القرن السادس عشر، على إثر استكشافات كولومبوس؛ ولذلك يشكل تقدير عدد السكان الهنادرة في أمريكا الشمالية لدى

١. إيف بينو، تحطيم الهنادرة في منطقة الكاريبي، (الكتاب الأسود)، ص٥٥-٥٦.

٢. المصدر نفسه، ص٥٧-٦١.

هجرة الأوربيين الكثيفة، منذ القرن التاسع عشر على الأقل، موضوع مناقشاتٍ لم تكن تاريخيّةً وحسب بل سياسيّة أيضًا؛ فقد قُدّر عدد الهنادرة في أمريكا الشمالية في عام ١٨٣٠م، بستة عشر مليونًا في ١٤٩٢م، قبل أن يراجعه مكتب الإحصاء الأمريكي نحو الانخفاض، إذ كان يتكلّم في نهاية القرن التاسع عشر عن نصف مليون من الهنادرة لدى وصول كولومبوس، موزعين على شكل (عصابات متفرق). ومن الواضح أنّ هذا الرقم يقلل عمدًا من الانهيار السكاني للشعوب الهندرية في زمن كانت أبيدت فيه عمليًا. وفي عام ١٩١٠م، قدّم عالم الأنثروبولوجيا جمس موني (James Mooney) تقديرًا يرتكز جوهريًّا على شهادات المستكشفين الأوربيين الأوائل وهو (١١٤٨٠٠٠) من الهنادرة. ولم يُعد النظر في هذا الرقم بعمق حتى ستينيّات القرن العشرين لما كان ينظر إلى الهنادرة باستخفاف، وحتى من الذين كانوا يدّعون بأنّهم موضوع لدراستهم. وكانت المراجعة الأكثر إثارة، مع أعمال هنري دوبيتر (Heary Dobyns)، الذي قدّر في عام ١٩٦٦م، عدد الهنادرة بين (٩،٨) ملايين، و(١٢،٢٥) مليون نسمة، قبل أنْ يراجع تقديره في عام (١٩٨٣) ليصبح (١٨) مليونًا، مرتكزًا على فرضيات مصادر متوافرة. وللتوصل إلى هذا الرقم كان دوبيتر ينطلق من إحصاء الهنادرة في عام ١٩٣٠م، مضروبًا بـ (٢٠) أو (٢٥) (وهو معامل تناقص السكان الذي يأخذ في الحسبان الأمراض والانهيار السكاني لسنوات الاستعمار الأولى). ففي فترة أعمال دوبيتر، كان علماء الأنثروبولوجيا والمؤرّخون يبدأون في التشكيك بأعمال من سبقوهم لأسبابٍ سياسيّةٍ وعلميّة، وليس بنية إعطاء الكلمة لمهزومي التاريخ وحسب، بل أيضًا لإعادة كتابة تاريخ الاستعمار الأمريكي، ليس كغزو البيض لأراضٍ خاوية، بل بوصفه تاريخًا للإبادة المنظّمة أحيانًا لكائناتٍ بشريّة، ولاسترقاق ملايين آخرين نفوا من إفريقيا[١].

صحيح أنّ علماء الأنثروبولوجيا أعادوا النظر مؤخّرًا نحو التخفيض في تقديرات دوبيتر، بالجمع بين تقنياتٍ مختلفة: إحصائية وإثنوتاريخية مقترحين تقديرات تتراوح ما بين (٢،٢)، و(٧) ملايين من الهنادرة في أمريكا الشمالية (منهم) خمسة ملايين في أراضي الولايات المتّحدة الحالية،

١. المصدر نفسه، ص٦٣-٦٤.

بناءً على حسابات راسل ثورنتون[١] (Russell Thornton) نحو عام ١٥٠٠م. ولم تنتهِ المناقشات إلّا بتقديرٍ تراوح بين (٦) و(٨) ملايين نسمة، على ما يبدو، وهو الأكثر مقبوليةً لدى المتخصّصين. في حين أنّ عدد الهنادرة في عام ١٨٠٠م، لم يتجاوز (٦٠٠٠٠٠) نسمة (في الولايات المتحدة الأمريكية) وتناقص حتى صار (٣٧٥٠٠٠) نسمة نحو عام ١٩٠٠م (٢٥٠٠٠٠) في الولايات المتّحدة، أي: ما يعادل (٥-١٠٪) من عدد السكّان الأصلي، في القرن العشرين.

ومع ذلك، يخلص الكاتب، إلى أنّه بالرغم من استحالة قياس تأثيرات استقرار الأوربيين في أمريكا الشمالية بدقة، إلّا أنّه تسبّب بكارثةٍ سكانيةٍ فريدةٍ في حجمها خلال تاريخ الإنسانيّة. فجماعاتٌ برمّتها ومجتمعاتٌ وثقافاتٌ راقيةٌ اختفت نهائيًا من على وجه الأرض. وإنّ انهيار السكّان الهنادرة المتواصل ما بين (١٥٠٠-١٩٠٠)، يرجع إلى مجموعة عوامل ترتبط مباشرةٍ بالاستعمار: «إذ يمكن القول ببساطة أولاً إنّ السكّان تناقصوا؛ لأنّ عدد الوفيات فاق عدد الولادات، زد على ذلك ظاهرة الهجرة، وهي هامشيّة هنا. أمّا الأمراض والحروب والمذابح والطرد، وتحطيم طرق الحياة، فلم تكن عواقب وخيمة للاستعمار؛ بل كونت جوهره نفسه»[٢].

ظلّ استرقاق الهنادرة هامشيًّا، فقد كانوا غالبًا ما يرفضون الأعمال الزراعيّة التي توكل لهم، إذ من الصعوبة بمكان دائمًا استرقاق رجال في أوطانهم؛ ولذا كان يجب نقل الأسرى إلى مناطق مجهولة، مثلما حدث في عام (١٦٧٦)، عندما نُفي هنادرة متمردون من إلى الكاربي. وعلى ما يبدو، لم يتوافر على الفور ما يكفي من الهنادرة الأحياء للاستجابة للحاجات الضخمة إلى المزارع الاستعماريّة، فجلب المستوطنون من أوروبا عمالاً متعاقدين، وبخاصة عبيدًا إفريقيين منذ القرن السابع عشر. ولمّا كان نفع الهنادرة الاقتصادي هامشيًّا، بل معدومًا في نظر الغالبيّة العظمى من المستوطنين، لم تكن هناك أيّ حاجةٍ إلى المحافظة على أرواحهم. وباختصار، كان الهنادرة يمثّلون عقبةً أمام استعمار أمريكا الشماليّة، وليسوا أداةً لتحقيق ذلك.

---

١. راسل ثورنتون (من مواليد ٢٠ شباط ١٩٤٢) هو شاعر وعالم أنثروبولوجيا أمريكي – كندي من أصل هندي لقبيلة شيروكي وأستاذ في علم الأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، وهو معروف بدراساته لتاريخ سكّان الشعوب الأصلية في الأمريكتين.

Russell Thornton، Studying Native America Problems and Prospects، Native American Studies / Education، The University of Wisconsin Press. https://uwpress.wisc.edu/books/0498.htm

٢. باب نادياي، (إبادة هنادرة أمريكا الشمالية)، الاستعمار: الكتاب الأسود، ص٦٥.

كما ناقش الكاتب إحدى المسائل التي شغلت المؤرخّين طويلاً، وهي البحث في علاقة السببية فيما بين العنصرية والأشكال المختلفة للهيمنة والعنف التي أُخضع لها العبيد القادمون من إفريقيا والهنادرة معًا. فقد كتب المؤرّخ الرش ب. فلبس (Ulrich B. Philips) في بداية القرن العشرين: «إنّ العنصرية والرقّ كانا مرتبطين بصفةٍ طبيعيّة، ويشرعن أحدهما الآخر، مثل وجهين لا غنى عنهما لرسالة البيض التحضيرية». واستؤنف البحث في المسألة في منتصف القرن العشرين في ضوء سياقٍ سياسيّ انتزع تدريجيًّا الشرعيّة عن العنصرية. ودار نقاشٌ حادٌّ بين الذين يعتقدون بأنّ مؤسّسة الرقّ اخترعت الأيديولوجيّة العنصريّة لتسويغ سلوكها وأولئك الذين كانوا يلاحظون أنّ الأحكام العنصريّة المسبقة كانت منتشرةً على نطاقٍ واسع، قبل استعمار القارة الأمريكيّة بكثير. ومن ثم يخلص الكاتب الى أنّ وجهتي النظر ليستا متناقضتين؛ وذلك انطلاقًا من أنّ المتفق عليه اليوم أنّ واقع التفكير العنصري النمطي كان سابقًا على الاستعمار، لكنّه تعزّز وتشرعن بقرنين ونصف من الاستعباد.

وقد أوضح مؤرّخون متأخّرون أنّ منزلة الهنادرة لم تكن أفضل في سلّم المستوطنين العنصري؛ فمنذ القرن السادس عشر صنع المستكشفون والكتّاب الإسبان منظومةً من الاعتبارات العنصريّة هدفها ذمّ الهنادرة، وتصف بعض مؤلّفاتهم الهنادرة بأنّهم نتاج هجين إنساني حيواني، وبأنّهم (أكلة لحوم البشر)، ولهم (رؤوس كلاب)، ومنحرفون جنسيًّا، ويقترفون خطيئاتٍ مميتةً أخرى، فهم كائنات دنيا، ينبغي استعبادهم، أو بكلّ بساطة، إفناؤهم.

وعلى الرغم من وجود بعض الأصوات النادرة المخالفة، كانت هذه الأكاذيب منتشرةً على نطاقٍ واسعٍ في أوروبا، وبخاصّة في بريطانيا التي تبنّى ممثّلوها في أمريكا الشماليّة خطاب الغزاة الإسبان العنصري منذ السنوات الأولى للاستعمار البريطاني، بداية القرن السابع عشر. فضلاً عن ذلك إنّ البريطانيين لم يحاولوا قط بصفةٍ جديّة تنصير الهنادرة. فعلى الرغم من بعض النوايا التبشيريّة، كان هدفهم الأول السيطرة على الأراضي ـــ ولم تكن التحالفات المعقودة مع بعض الزعماء الهنادرة إلّا وقتية، نظرًا لميزان قوى غير مناسبٍ عندئذٍ ـــ ولا يهم من أجل هذا القضاء على السكّان المحليين إذا لزم الأمر[١]. ومن ثم يستشهد الكاتب بموقفين لرؤساء الولايات المتحدة الامريكيّة، ففي بداية القرن التاسع عشر، أوصى توماس جفرسن، ثاني رئيس للولايات المتحدة الأمريكيّة، وكان يملك عبيدًا، بإبادة الهنادرة أو نفيهم إلى أبعد ما يمكن. وكان ثيودور روزفلت

١. المصدر نفسه، ص٦٥-٦٦.

يردد صداه، بعد قرن، عندما صرح: «لن أذهب إلى حدّ قول إنّ هندريّا طيّبًا هو هندريّ ميّت، لكنّها في الواقع حالة تسعةٍ من كلّ عشرةٍ منهم، ولن أضيّع وقتي مع العاشر». ومن ثم يتساءل الكاتب: ترى هل يمكن الكلام عندئذٍ عن إبادةٍ جماعيّة، أو بالأحرى عن محرقةٍ أمريكيّةٍ فيما يتصل بمذبحة الهنادرة كما يعّبر عدة مؤلّفين معاصرين؟

والإجابة كانت أكثر تفصيلاً، إذ من الواضح أنّ استعمار أمريكا الشمالية لم يجرِ أساسًا بهدف إبادة كائناتٍ بشريّة، بل كان يستجيب بالأحرى لمجموع دوافع اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ غريبة عن السكّان الهنادرة بمعنى الكلمة. ومن الواضح أيضًا أنّه ما إنْ استقرّ الأوربيّون في المكان حتى أخذوا يتصلّبون في موقفهم حيال الهنادرة إلى عدّهم أكثر الأحيان نوعًا أدنى وضارًا من البشر، والقضاء عليهم شرعي، بل حتى مستحب. فمصطلح الإبادة الجماعيّة الذي يعني القضاء المنظّم على جماعةٍ بشريّة، مناسب إذًا. لقد حدثت بالفعل إبادةٌ جماعيّةٌ في أمريكا الشماليّة شكّلت مع الرقّ الوجه الأكثر مأساويةً في سيرورة الاستعمار.

أما الأمراض، فلم تنتشر الأوبئة بوصفها نتيجةً مؤسفةً للاستعمار، مثلما يقال في الأغلب؛ لأنّ الأوربيين كانوا يبتهجون غالبًا بإضعاف المجتمعات الهنديّة، ويعدون الجدري والأمراض الأخرى نعمةً من الرب؛ ولأنّ هذه الأمراض كانت تُنشر عمدًا أحيانًا، وتكلّم مؤرخون عن حربٍ بيولوجيّة، ربما قضت، في القرن الثامن عشر على القوى الحيّة لعدة شعوبٍ هندرية، والحالة الأكثر توثيقًا هي تلك التي جرت في فورت بيت (Fort Pitt) (ولاية بنسلفانيا) عام (١٧٦٣)، حينما أمر الجنرال البريطاني أمهرست (Amherst) بذر الجدري بين الطفيليات الهنادرة، فتمّ ذلك بوساطة أغطية ملوّثة. أضف إلى ذلك أنّ حملات تلقيح الهنادرة بصفةٍ عامةٍ ضدّ الجدري بالخصوص ظلّت متواضعةً حتى نهاية القرن التاسع عشر؛ ولذلك، لاينبغي، من وجهة نظر الكاتب، النظر إلى الأوبئة كظواهر بايلوجيّةٍ مستقلةٍ عن الإرادة البشريّة، بل كأحد أوجه الاستعمار[١].

وأخيرًا، عانى الهنادرة من الحروب أيضًا. صحيح أنّ صراعاتٍ عنيفةً بين القبائل الهندريّة كانت تنشب قبل وصول الأوربيين، وكان أسرى هذه المعارك يعاملون بقسوةٍ أحيانًا، إلّا أنّ الأوربيين جعلوا من الحرب منهج إبادةٍ عامةٍ لها، وتخريبٍ لوسائلها في البقاء، وتحطيمٍ لثقافتهم. فمن الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي، ومن فلوريدا إلى أوريغون تأجّج لهيب الصراعات منذ السنوات الأولى للقرن السادس عشر، حتى إخضاع السيو (Sioux) في عام ١٨٩٠. فضلاً عن

١. المصدر نفسه، ص٦٦-٦٩.

الحرب الأهليّة التي قضت على عدة شعوبٍ مثل شيروكي (Cherokee). إذ كان الهنادرة يُعدون في كلّ الأحوال عقباتٍ أمام تحقيق المصير المحتوم، بينما يُعد المستوطنون رأس حربة الحضارة. ومع ذلك لا يجب النظر إلى الهنادرة من دون تمييزٍ كأبطال: فإذا كان بعضٌ منهم لا يلجأون إلى العنف إلّا في آخر المطاف، فقد كان آخرون محاربين بلا رحمة.

كما أنّ المستوطنين الأوربيين كانوا ينقسمون إلى مدافعين عن حقوق الهنادرة، ومستغلين لهم من دون وازع، وآخرين أيضًا كانوا يستفيدون من الاضطهاد، وحتى بعض المجرمين لم يكن همهم سوى الأفعال الإجراميّة. وقد ظلّت العلاقات بين المستوطنين والهنادرة مطبوعةً بالعنف عمومًا. وإذا ما كان الهنادرة خسروا حرب الأربعمئة عام فلم يكن ذلك لنقصٍ في الشجاعة أو المهارة لديهم، بل لأنّ الأوربيين سحقوهم خلال مراحل الاندفاعات الاستعماريّة الرئيسة في أمريكا الشماليّة.

وبمرور الوقت، شكل اكتمال الغزو بدايةً لمرحلةٍ اتصفت بوصاية مكتب الشؤون الهندريّة ـــ الذي أُسّس في عام (١٨٢٤) ـــ على الشعوب الهندريّة المعترف بها رسميًّا. وفي هذا الإطار، أفضى قانون داوس (Dawes) في عام (١٨٨٧) الذي قرر توزيعًا عقاريًا (٦٤ هكتارا لكل عائلة) إلى تخفيض الأراضي الهندرية بمقدار الثلثين خلال نصف القرن التالي، في الوقت الذي كان المستوطنون يستولون على أفضلها وعلى الموارد. ومع أنّ مئات من المحميات كانت أقيمت، وبخاصّةٍ فيما بين عامي ١٨٦٧ و١٨٨٧، للسيطرة على السكّان المحلّيين وعزلهم مع ضمان الملكيّة الجماعيّة للأرض، فإنّها والمعاهدات التي أسّست عليها، لم يكن لها كبير وزن في مواجهة مصالح المستوطنين الاقتصاديّة وعنصريتهم. وقد وضعت سياسة تدمير للثقافات الهندريّة موضع التنفيذ: فالهنادرة في المحميات كانوا يُعدّون عمليّا أسرى حرب، ويعيشون في فقرٍ مدقعًا، بينما كان يرسل أولادهم إلى مدارس داخلية نائية توخيا لضرورة صهرهم في المجتمع الأبيض. وكانت مجالس القبائل استبدلت بإدارةٍ غير مباليةٍ، أو معاديةٍ متواطئةٍ أحيانًا مع المضاربات العقارية.

وفي هذا السياق، لم يكن لقانون عام (١٩٢٤) الذي منح التابعية الأمريكيّة للهنادرة، إلّا قيمة شكليّة. إلّا أنّ قانون إعادة تنظيم الهنادرة (Indian Reorganization Act) لعام ١٩٣٤ شكّل منعطفًا حادًّا، إذ عبّر عن إرادة إدارة روزفلت ممثّلةً بجون كولييه (John Collier)، أول رئيس لمكتب الشؤون الهندريّة، في مساعدة الهنادرة عوضًا عن إخضاعهم، ووضع حدٍّ لبعض المظالم الصارخة. فقد أعيد تأكيد الملكيّة الجماعيّة للأرض بوساطة الشعوب، كما أُعيد تأكيد بعض الحقوق (الحريّة الدينيّة في المحميات). لكن شهدت خمسينيّات القرن الماضي انحرافًا

جديدًا، في حقبة الحرب الباردة والسياسة المعادية للشيوعيّة، عندما اتهمت الشعوب الهندريّة بالاشتراكية، وحاولت الحكومة ـــ بخلاف سياسة كوليه ـــ وضع نهايةٍ للتنظيم القبلي في عام (١٩٥٣). وبالتوازي مع هذا، سمحت لجنة التظلمات الهندريّة Indian Claims Commission في عام ١٩٤٦، لبعض الشعوب بالمطالبة بأرضٍ سُلبت، والاعتراض على المعاهدات الجائرة أو التي حرّفت، بدفع تعويضاتٍ ماليةٍ في مقابل التنازل نهائيًّا عن أراض. ومثلما حصل للأقليات الأخرى، شكّلت ستينيّات القرنً الماضي منعطفًا هامًّا. حيث انتقلت المسألة الهندريّة في الولايات المتّحدة من العصر الاستعماري الذي تميّز بالعلاقة مع سلطةٍ غاشمة، تحتقر إجمالاً الثقافات الهندريّة، إلى مرحلةٍ جديدةٍ يمكن وصفها ما بعد الاستعمار، تمتاز بعواملٍ اضطهادٍ أقل، وهوامش للحكم الذاتي أوسعٍ، حتى وإنْ ظلت أشكال التمييز، التي صحّحها بالكاد (العمل التوكيدي - affirmative action).

ويعزو الكاتب هذا التغيير إلى مجموعتين كبيرتين من الأسباب، أولهما: تغيّر سياسة الحكومة الأمريكية تغيّرًا ذا مغزى في الستينيّات؛ إذ شجّعت إدارتا كندي وجونسون استقلال الشعوب الهندريّة الذاتي سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، مستندةً بالخصوص إلى تقارير رسميّةٍ تندّد بظروف معيشة المحميّات، وتوصي بالتخلّي عن سياسة تذويب الهنادرة لصالح تقريرهم مصيرهم بأنفسهم. وثانيهما: اشتدت المقاومة الهندرية لعوامل الاضطهاد في السياق العام لنضال الأقليات وبخاصّة الأفروأمريكية، والحق أنّها، منذ نهاية القرن التاسع عشر، لم تنطفئ تمامًا؛ فقد ناضلت (جمعية الأمريكيين الهنادرة - Society of American Indians)في عام ١٩١١ للحصول على التبعيّة التي منحت بعد ثلاثة عشر عامًا، كما اجتهد (المؤتمر الوطني للأمريكيين الهنادرة National Congrss of American Indians) في ١٩٤٤لتوحيد المنظمات الهندريّة القبلية.

لكن الروح النضاليّة الهندريّة اكتسبت بُعدًا آخر في عقدي الستينيّات والسبعينيّات من القرن العشرين، إذ درس بعض المناضلين في الجامعات، وتأثّروا باليسار الجديد وحركات الاحتجاج السياسي الراديكاليّة، ولم يكونوا راضين عن زعماء القبائل المعتدلين والفاسدين أحيانًا، ورغبوا في خلق حركة (القوة الحمراء) على غرار القوة السوداء (Black Power) التي أسّسها السود. وتجدر الإشارة، إلى أنّ عبارة (القوة الحمراء)، التي تُعزى للمؤلّف فاين ديلوريا الابن، عبّرت بشكلٍ شائعٍ عن تنامي الشعور بالهويّة القوميّة الهنديّة في أواخر ستينيّات القرن العشرين بين الهنود الأمريكيّينً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

ولقد كان المحفّز الرئيس للقوة الحمراء يتمثّل في احتلال السجن الفيدرالي المهجور في

جزيرة ألكاتراز Alcatraz))، في خليج سان فرانسيسكو في العشرين من تشرين الثاني ١٩٦٩. وقد طالبت مجموعةٌ مكونةٌ من (٨٩) هنديًّا، معظمهم طلّاب جامعيّون قالوا عن أنفسهم إنّهم (هنود كلّ القبائل) لهم الحقّ في الجزيرة بموجب شروط المعاهدة الأمريكية لعام ١٨٦٨ مع سيوكس، التي منحت الهنود الحقّ في امتلاك أيّ ممتلكاتٍ فيدراليةٍ غير مستغلةٍ موجودةٍ على أيّ أرضٍ هنديّة. وقد طالبت المجموعة بتوفير أموالٍ فيدراليةٍ لإنشاء مركزٍ ثقافيّ وتعليميّ متعدد الأنشطة. وقد تمت زيارتهم من خلال مجموعةٍ من النشطاء، وقد حفّز ذلك العديد من الأحداث الأخرى[١]. ولفت هذا الحدث انتباه العالم أجمع للحركة الأمريكيّة الهنديّة (American Indian Movement)، وبصورةٍ أوسع لمطالبها، ولمصير هنادرة أمريكا.

وتتالت أعمال أخرى في الولايات المتحدة وكندا، كانت تبرهن على أنّ الهنادرة لم يكونوا شعبًا خاملاً تتقاذفه أحداث التاريخ، فهم يتطلّعون بوضوح، ربما أكثر من كلّ الأمريكيين، إلى الحفاظ على ثقافاتهم الخاصّة وتطويرها، إلى أنْ تعترف الحكومة ليس فقط بالمظالم التاريخيّة، بل أيضًا بشتّى أشكال التمييز الاجتماعي، والطبي، والمدرسي الذي يعانونه؛ إذ إنّ معدل الفقر في المحميّات الهندريّة أكبر بأربع مراتٍ من المعدل الوسطي الوطني. وتدلل المؤشّرات الاجتماعيّة

١. على سبيل المثال، في العام التالي، وفي يوم عيد الشكر عام ١٩٧٠، قادت حركة الهنود الأمريكان (AIM) أول تظاهرةٍ لها: من خلال طلاء صخرة بلايموث باللون الأحمر واحتلال سفينة ماي فلاور ٢ في بوسطن. وعلى مدار عام ونصف بعد ذلك، احتفى فريق مكون من ١٠٠ فرد في المتوسط ومجموعة كبيرة من الزوار من قبائل متعددة، باحتلال الجزيرة. ورغم فشل المتظاهرين في نهاية المطاف في تحقيق هدفهم المحدد، إلاّ أنّهم ساعدوا على تحفيز المجتمع الهندي. وقد قال أحد المشاركين، من خلال احتلال ألكاتراز، «استعدنا قيمتنا وفخرنا وكرامتنا وإنسانيتنا». ومنذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٨، ألقت حركة القوة الحمراء الضوء على المشكلات من خلال التظاهرات الاجتماعية. وقد كانت تهدف إلى دفع الحكومة الفيدرالية إلى احترام التزاماتها في المعاهدات وتوفير الموارد المالية والتعليم والإسكان والرعاية الصحية من أجل التخفيف من حدة الفقر. وقد رغبت حركة القوة الحمراء في ألكاتراز في مشاركة الهنود في المؤسسات الاجتماعية، فقد كان لها دور أساس في دعم تأسيس الكليات الهندية، بالإضافة إلى وضع برامج الدراسات الهنديّة في المؤسسات الموجودة، وإنشاء المتاحف والمراكز الثقافيّة للاحتفاء بالمساهمات الهنديّة. وقد أنجزت حركة القوة الحمراء العديد من أهدافها بحلول الوقت الذي انخفض فيه مستوى النشاط الاجتماعي في أواخر السبعينيات من القرن العشرين. ومع بدايات عقد الثمانينيّات من القرن نفسه، كان قد تم عمل ما يزيد على ١٠٠ برنامج للدراسات الهندية في الولايات المتحدة. كما تم افتتاح المتاحف القبلية. ومن بين أبرز المراكز الثقافية (المتحف القومي الأمريكي الهندي) (NMAI)، الذي اعتمده الكونغرس الأمريكي في عام ١٩٨٩ وتم افتتاحه في واشنطن العاصمة في عام ٢٠٠٤. كما أنّ له فرعًا كذلك في مركز الجمارك في الولايات المتحدة. ينظر للمزيد:

Alcatraz Is Not an Island، 6 Jul 2015، In:

https://web.archive.org/web/20150706155339/http://www.pbs.org/itvs/alcatrazisnotanisland/index.html

التي يقدّمها الإحصاء الأمريكي على أنّ الهنادرة يشكّلون المجموعة الأكثر فقرًا، والأكثر معاناةً، والأكثر تهميشًا في المجتمع الأمريكي بسبب التمييز، فضلاً عن أنّ عددهم (مليونا نسمة تقريبًا) لا يسمح لهم بالتأثير في الدوائر السياسيّة.

وبعد قرنٍ من نهاية استعمار أمريكا الشماليّة، لا يزال الهنادرة يعانون عواقبه. فهم، مع السود، رفاقهم في سوء الحظ، كانوا أكبر الخاسرين في التاريخ الأمريكي. لكنّهم على عكس السود الذين جلبوا من إفريقيا لخدمة الاستعمار، وسُخّروا لغاياتٍ اقتصاديّة، كانوا يعدون عقبات أمام الاستعمار، وطفيليات ينبغي القضاء عليها. فذُبحوا حتى نحو عام (١٨٩٠) بمعدلات إبادةٍ جماعيّة. ثم طبقت خلال النصف الأول من القرن العشرين بحقّهم، سياسة ذات طابعٍ استعماريّ هدفت إلى مراقبتهم وتذويبهم، لمحو ثقافاتٍ هنديّة، يُنظر إليها بازدراءٍ أو بتأنيب ضميرٍ أحيانًا. وإذا ما سمح الاعتراف اليوم بالتعدّدية الثقافيّة للولايات المتّحدة، مقرونًا بالنضال السياسي والثقافي للهنادرة، بتغييراتٍ ذات مغزى، فإنّ هذه التغييرات لا تؤثّر على كلّ حال، في مقدار المصائب التي لا تصدق، التي كأنّها تاريخ الاستعمار في أمريكا الشمالية[١]. وقد أصبحت حقوق السكّان الأصليين موضوعًا دوليًّا، مع ظهور مجموعات النشطاء في العديد من الدول. وقد اعترفت الأمم المتّحدة بشكلٍ رسميّ بحركة حقوق السكّان الأصليّين الدوليّة.

وعلى أيةٍ حال، فإنّ مصير (الأبورجيين) (Aboriginal)، سكان أستراليا الأصليين، وهم الشعوب التي انحدرت من المجموعات التي عاشت في أستراليا وعلى الجزر المحيطة بها قبل الاستعمار البريطاني للبلاد، لم يكن الأمريكيّون الأصليون (الهنود الأمريكيون)، أفضل حالاً من السكّان الأصليّين للأمريكيتين، قبل عصر كريستوفر كولومبوس (العصر القبل الكولومبي).

وكما كان بين الشعوب الأصليّة المختلفة تشابُه في نقاطٍ معينة، فإنّ بينهم كذلك اختلافات كثيرة، إذ لكلّ شعبٍ منهم مزيجه الخاصّ من الثقافات والشعائر واللغات. فقد تعرّض الأبورجيون، مع هيمنة الاستعمار الأوروبي وما جرى في ظلّ نفوذه، الى القتل بالجملة والاغتصاب والتشويه، وسلبت أراضيه، من قبل مجرمين ومنبوذين جاءوا من بلادٍ بعيدةٍ لاستعمار وزراعة أرض بلدٍ جديدة، وينمون كلّ موارده، لينتهوا الى بناء المدن وخلق شروط الحضارة وتقدمها، فكوّنوا أحيانًا دولاً أو حكموا أنفسهم بأنفسهم.

إنّ هذا التصنيف الموضوعي ينطوي بصفةٍ لاإراديةٍ على إيديولوجيّة البيض، إذ يؤسّس للفكرة

١. باب نادياي، (إبادة هنادرة أمريكا الشماليّة)، الاستعمار: الكتاب الأسود، ص٧٤-٧٨.

التي لديهم عن الاستعمار في أستراليا. فحتّى وقت قريب، كانت نصوص الأستراليين التاريخيّة الهامة تحكي بعباراتٍ ملحميةٍ كيف تكونت الحضارة باقتلاع الأدغال، فخلقوا هكذا أحد أغنى المجتمعات، وأكثرها عمرانًا وعصريةً في العالم، مع الحفاظ على نظامٍ ديموقراطيّ اجتماعيّ سخيّ مؤسَّسٍ على الرفقة. هذا الاستعمار، كما نظر إليه أبوريجون أستراليًا من الجانب الآخر للحدود، شعبٌ حاربوه المستوطنون وتغلبوا عليه، لكنّهم لم يتوصلوا قط إلى الاعتراف بما كانت تتضمنه هذه الحرب. فقد رفضوا، ويرفضون الاعتراف به كمجموعةٍ متميزةٍ من الأشخاص، وكشعب نبت من هذه الأرض.

وبطبيعة الحال عندما يكون بقاء شعبٍ مهددًا سيشنّ هجومًا معاكسًا. كانت حالة الحرب هذه واضحةً لدى السلطات الاستعماريّة الأولى، لكنّه لم يكن من مصلحة وزارة الداخليّة البريطانيّة الاعتراف بأنّ القبائل الأبوريجين كانت تشكّل أمة، ولا إعطاؤها وضعيّة قانونية بناءً على ذلك. وهذه الحالة تذكرنا بأنّ الاستعمار، كما يعرّفه القاموس الشامل، يعني أنّ المُلّاك الأصليّين طردوا من أراضيهم، وسُلبت منهم الوسائل التقليديّة لإنتاج ما يقتاتون به واضطروا بناءً على ذلك إلى التكيّف من أجل البقاء والتخلّي بالتالي عن ثقافتهم. فالاستعمار تضمّن تحطيم مجتمع الأبوريجين. ومن ثم بناء هوية الأستراليين الوطنيّة على هذا التحطيم. لكن مشروع التحطيم هذا أخفق، ولهذا ينبغي على الأستراليين جميعًا اليوم إعادة النظر في هويّتهم الوطنيّة. إنّ حرمان الأبوريجين من أراضيهم هو الذي قضى على غالبيتهم خلال القرنين التاليين العام (١٧٨٨)؛ لأنّه سبّب المجاعة، وأضيفت إليه الأمراض التي أدخلها البيض كالجدري والأمراض التناسلية، والإدمان على الكحول خاصّة، فتحطيمهم إذًا من فعل استعمار (البيض المتنورين)، الذين كانوا يظنون أنّ الفضائل والقيم مرتبطة بالتحضر، وبزراعة الأرض، والتسليم لدولة القانون القائمة على الملكيّة الفرديّة والمنتجات التي تعرضها. إلّا أنّه ما من واحدةٍ من هذه القيم كان لها معنى في نظر الأبوريجين الذين كان الغزاة البيض يلقونهم على حدودهم. وقد نظر الغزاة إلى نفورهم من تبنّيها، خلال قرنين من التقاتل بوصفه سلوكًا ذميمًا كان يستحق العقاب، إذ إنّ سياسة المستعمِرين البيض قامت على إرغام الأبوريجين على التنصل من تقاليدهم الخاصّة، وتبني تقاليد البريطانيين.

وتضمّنت محاولة التحطيم هذه ثلاث مراحل متمايزة تداخلت في الزمان: الأولى، التي بدأت في عام (١٧٨٨) مع وصول المستوطنين، كانت توصي بصفةٍ شبه رسميّة، بقتل الأهالي الذين كانوا يقاومون العمليات المحضرة. والتي دامت على الأقل حتى عام (١٩٢٨)، حينما قُتل اثنان وثلاثون من الأبوريجين، انتقامًا لاعتداءٍ وقع على أبيض كان يصطاد كلاب (الدينغو) في أرض الشمال،

وهو انتقامٌ وجدته المحكمة مبرّرًا، ويمكن الادّعاء أنّ واقع الحال هذا يتواصل في عام (٢٠٠٠) مع العدد الشديد الارتفاع لوفيات الأبوريجين خلال الحبس الاحتياطي. وبما أنّ هذه المذابح كانت في كلّ مكانٍ تقريبًا، فقد أثارت الرأي العام التقدّمي في القرن التاسع عشر، واضطرّت الدولة إلى معاقبتها منذ عام (١٩٣٨).

والثانية في بداية القرن العشرين، إذ أسهمت سياسة التذويب القسري، في تحطيم مجموعة الأهالي أكثر فأكثر؛ لأنّ الجزء الأكبر من القارة كان مستعمَرًا أو مستولى عليه، حيث كانت (الحرب السوداء)[1]، قد خمدت بهزيمة الأبوريجين. فقد قام أول أشكال التذويب على إرغام الأبوريجين على الاستقرار وزراعة الأرض على غرار البيض، وحيثما أخفق هذا النهج، طبّقت سياسة الفصل بحصرهم في مراكز أو محميّات، وتركهم ليموتوا فيها بعيدًا عن مرأى ومسمع أيّ إنسان. وقد استمرت هذه السياسة حتى عام (١٩٧٠) في المناطق التي احتلّها البيض من عهدٍ قريب. فقد بلغت ذروتها عندما جرى الانتقال إلى (الانتقاء البيولوجي) بهدف القضاء على (الدم الملوّن)، في عشرينيّات القرن الماضي، عقب التحويل القسري لكلّ الأطفال الخلاسيين، الذين انتزعوا من عائلاتهم حتى ينشأوا في مؤسساتٍ أو في عائلات بيضاء، حيث كانوا يُدربّون على أعمالٍ حقيرة.

أما المرحلة الثالثة من تحطيم المجتمع الأبوريجيني فكانت بدأت في ثمانينيّات القرن الماضي عندما سعى السكان الأصليّون، وقد تزايد عددهم، إلى أن يُعترف بالإبادة الجماعيّة الطويلة الأمد

---

١. الحرب السوداء، هي فترة الصراع العنيف بين الإمبراطورية البريطانية والأستراليين الأصليين في تاسمانيا من منتصف العشرينات حتى عام ١٨٣٢. أودى الصراع، الذي كان أشبه بحرب عصاباتٍ بين الطرفين، بحياة أكثر من ٢٠٠ مستعمرٍ أوروبي وبين ٦٠٠ لـ٩٠٠ من السكان الأصليين، مهلكًا السكان الأصليين للجزيرة. وصف المؤرّخ نيكولاس كليمنتس عنف السكّان الأصليين كحركةٍ مقاومة، استخدامت القوّة ضدّ عدوٍ منتهكٍ أو محتل. وقال إنّ هجمات السكّان الأصليين كان حافزها الانتقام من الأعمال الوحشية للأوروبيين، والخطف المنتشر، واغتصاب وقتل نسائهم وبناتهم، بوساطة السجناء، والمستوطنين، والجنود، ولكن منذ أواخر العشرينات بشكلٍ خاصّ، كان السكّان الأصليّون مدفوعين كذلك بالجوع لنهب منازل المستوطنين بحثًا عن الطعام نظرًا لتقلص مناطق الصيد الخاصة بهم، وتزايد مخاطر الصيد في الأراضي المفتوحة. في ذات الوقت، كان العنف الأوروبي محفّزًا بتصاعد إرهاب هجمات السكّان الأصليين، والقناعة بأنّ إبادة السكّان الأصليين هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها ضمان السلام. قال كليمنتس: «كلما زاد العنف الأسود من حيث القوة، زادت وتيرة هجمات الثأر والضربات الوقائيّة من قبل رجال الحدود». تمت صياغة مصطلح (حرب سوداء) من الصحفي هنري ملفيل في ١٨٣٥. ينظر للمزيد:

Nicholas Clements، The Black War، Brisbane: University of Queensland Press، 2014، pp. 1، 4267-58 ،50-. ; Henry Melville، The History of Van Diemen's Land From the Year 1824 to 1835، Cambridge University Press، New York، 2011، pp. 89، 90

التي كان آباؤهم ضحاياها خلال قرنين فطلبوا تعويضات، كما طالبوا باستعادة أراضيهم. إلّا أنّ غالبية الأستراليين اتّفقوا مع دولتهم في عام (٢٠٠٠)، في أنّ معرفة هذا التاريخ المحجوب، وتلك الإبادة الجماعية الحقيقية، من وجهة نظر الكاتب الاستير دافيدسون (Alastair Davidson)، تشكّل خطرًا كبيرًا على هويّتهم؛ إذ لا تزال التأثيرات النفسيّة للاستعمار حيةً في أعماق النفوس. فقد أظهرت الإحصاءات في المقابل إخفاق سياسات الإبادة والتذويب؛ لأنّ السكّان الأبوريجين، بناءً على تعريفهم لأنفسهم ـــ بدلاً من تعريف الإدارة الرسميّة لهم ـــ بدأوا في عام ١٩٩٦ بالتزايد: فقد كانوا يعدون (١٧١١٥٠) نسمة في عام (١٩٨١)، و(٣٨٦٠٠) في عام (١٩٩٦) رغم معدل وفيات الأطفال المرتفع، وضعف متوسط الأعمار حسب (إحصاء عام ١٩٩٦). وعليه يرى الاستير دافيدسون أنّ مشروع الاستعمار بالقضاء على الأبوريجين وعلى ثقافتهم قد أخفق، في الوقت الذي تشير كلّ العوامل السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى أنّ السكّان الأبوريجين لا يكونون جزءًا من المجتمع الأبيض. وبعبارةٍ أخرى، لم يتقبل الأبوريجين، بالنظر إلى تاريخهم، وضعيتهم القانونية كرعايا بريطانيين[١].

وعلى ذلك بلغ تعدادهم في ٣٠ حزيران عام ٢٠١٦ نحو (٧٩٨،٣٦٥)، أو ما يعادل ٣,٣٪ من مجموع السكّان الأستراليين. ومع أنّ تعداد الأستراليين الأصليين وقت الاستعمار الأوروبي ما زال محلّ جدلٍ بين الباحثين، لكن ممّا لا شك فيه، أنّ أعدادهم بدأت بالتناقص بسبب الوباء بعد الاستيطان الأوروبي، بدأ هذا مع انتشار وباء الجدري بعد ثلاثة أعوامٍ من وصول الأوروبيين، ومن الأمراض التي أدخلتها التطعيمات البريطانيّة والأمريكيّة قبل الاستيطان. حيث انخفض السّكان الأصليّون بنسبة حوالي ٣٠٠ بين عام ١٨٠٣م و١٨٣٣م سبب الأمراض، وساهمت أيضًا المذابح والنزاعات الحدوديّة بينهم وبين المستوطنين الأوروبيين في تقليل أعدادهم. لكن تسمية هذه الأعمال بالإبادة الجماعيّة أمرٌ ما زال محلّ خلافٍ ونقاشٍ بين الباحثين والمؤرّخين[٢].

فمنهم من وصف الإبادة شبه الكاملة للسكّان الأصليّين في (الحرب السوداء) بأنّها إبادةٌ جماعيّة، بما في ذلك روبرت هيوز، وجيمس بويس، ولينداال ريان، وتوم لاوسون. في حين عدّ مؤلّف كتاب (مفهوم الإبادة)، رافاييل ليمكين، أنّ (الحرب السوداء) موقع واحدة من حالات الإبادة الجماعيّة الواضحة، ووصف الكاتب الأسترالي روبرت هيوز مقتل السكّان الأصليين بأنّه «الإبادة

١. الاستير دافيدسون، شعب محكوم عليه الاستعمار وأبوريجين أستراليا، الاستعمار: الكتاب الأسود، ص٧٩، ٨٢-١٠٨.

2. Henry Reynolds، An Indelible Stain? The question of genocide in Australia’s history، Viking، Victoria، Australia.، 2001، pp. 2554-.

الجماعيّة الحقيقية الوحيدة في التاريخ الاستعماري الإنكليزي». وفي كتابه (تاريخ تاسمانيا في ١٨٥٢)، وصف جون ويست إبادة سكّان تاسمانيا الأصليين بأنّه نموذج لـ(مجزرةٍ منظّمة)، وفي قضية الكومنويلث في المحكمة العليا في عام ١٩٧٩، لاحظ القاضي ليونيل ميرفي أنّ السكّان الأصليّين لم يتنازلوا عن أرضهم بسلام، وأنّهم قُتلوا أو أخرجوا من أراضيهم بالقوة ما يساوي محاولة إبادة كاملة.

أمّا المؤرّخ هنري رينولدز فيقول إنّه كان هناك مطلبٌ واسع الانتشار من المستوطنين خلال حرب الحدود باستئصال أو إبادة السكّان الأصليّين. لكنّه ادّعى أنّ الحكومة البريطانيّة تصرّفت كمصدر تقييدٍ لأفعال المستوطنين. ويجادل رينولدز أنّه لا يوجد دليلٌ على أنّ الحكومة البريطانيّة تعمّدت إبادة السكان الأصليين لتاسمانيا؛ ولذلك فإنّ ما حدث لا يتوافق مع تعريف الإبادة الجماعية المتوافق عليه في اتفاقيّة الإبادة الجماعيّة في الأمم المتّحدة عام ١٩٤٨ [1]. ويتفق كليمنتس مع رأي رينولدز، ولكنّه أيضًا يبرّئ المستوطنين أنفسهم من تهمة الإبادة. حيث يقول: «إنّه على عكس نوايا الإبادة الكاملة في الهولوكوست في الحرب العالمية الثانية، والإبادة الجماعيّة في رواندا، ومذابح الأرمن في تركيا، والتي تم تنفيذها لأسبابٍ أيدولوجية، فإنّ مستوطني تاسمانيا شاركوا في العنف بشكل رئيسٍ بداعي الانتقام والدفاع عن النفس». ويضيف: «أولئك الذين كان حافزهم هو الجنس أو السعي المرضي للتشويق لم يكن لديهم أيّ دافعٍ أيدولوجي لإبادة السكّان الأصليين». كما يبرر ذلك بأنّ جرائم الإبادة تقع على أقليات مهزومة، وعاجزة، بينما كان التاسمانيون أعداء أقوياء ومرعبين للمستوطنين، وتم قتلهم في إطار حربٍ قتل فيها الطرفان أفرادًا غير مقاتلين [2].

في حين زعم مؤرّخٌ من سيدني وهو كيث ويندشاتل أنّ الإبادة الجماعيّة كانت أسطورة، بدأت كثأرٍ ضدّ حاكم أرض فان ديمن جورج آرثر، واستمر المؤرّخون في تناقلها منذ ذلك الحين. ويزعم المجلد الأول من كتاب كيث ويندشاتل (اختلاق التاريخ الأصلي) الصادر في نهاية عام ٢٠٠٢، أنّه التحليل الأكثر شمولاً حتى الآن للعلاقات بين المستوطنين والسكّان الأصليين في تسمانيا في أوائل القرن التاسع عشر، ويخلص إلى عدم وجود دليلٍ على المقاومة المنهجيّة للسكّان الأصليين والحرب الحدوديّة. ولقد شكّك كيث ويندشاتل لسنواتٍ عديدةٍ في التقارير التي تتحدث عن انتشار العنف بين السكّان الأصليين والمستوطنين في القرن التاسع عشر، مدعيًا أنّ هذا العنف تم

1. Ibid، p. 59

2. Tom Lawson، The Last Man: A British Genocide in Tasmania، London: I.B. Taurus.، 2014، pp. 15، 78، 85. ; Nicholas Clements، op. Cit، pp. 5658-.

تضخيمه من قبل الأكاديميين اليساريين شبه الماركسيين، بما في ذلك أحد أبرز المؤرّخين في هذا المجال، هنري رينولدز. وبعد البحث في (١٧) مجلدًا من الأرشيفات، خلص كيث ويندشاتل إلى أنّ الأدلة على حروب الحدود والمذابح في تسمانيا في أوائل القرن التاسع عشر غير موجودةٍ، وأنّ ١١٨ فقط من السكّان الأصليين في تسمانيا قُتلوا مباشرةٍ على يد البريطانيين. أمّا البقية فقد ماتوا بسبب (كوكتيل قاتل) من الأمراض المستوردة[١]. وفي نقد لموقف رينولدز، قال لاوسون إنّ الإبادة الجماعية كانت نتيجةً لا مفرّ منها لمجموعةٍ من السياسات البريطانيّة لاستعمار أرض فان ديمن. حيث يقول: «إنّ الحكومة البريطانية أقرّت استخدام التقسيم والقوة المطلقة ضد التاسمانيين، ووافقت على المهمّة الوديّة لروبنسون، وتواطأت في تحويل تلك المهمّة إلى حملة تطهيرٍ عرقي من ١٨٣٢..»[٢].

المحور الثاني

تجارة الرقّ

وفي المحور الثاني (تجارة الرقّ) كتب مارك فيرو (Marc Ferro) يقول إنّ العبوديّة وتجارتها كانتا موجودتين في إفريقيا قبل قدوم العرب والاستعمار الأوربي. فطالما كان مفهوم ملكية الأرض غير موجود، كان الرجال والنساء يشكلون المصدر الوحيد للثروة، وكان أَسرهم والاتّجار بهم عن طريق الحرب أو غيرها، يشعل الصراعات بين الممالك. وانتعشت هذه النشاطات نتيجةً للطلب الخارجي، من العرب منذ القرن الحادي عشر، ومن الأوربيين منذ القرن السادس عشر. وهكذا كانت (الماشية الإنسانيّة) تستخدم (عملة استبدال)، ورحلت إلى العالم العربي وإلى ما وراء الأطلسي. وقبل الإسلام، عندما كانت تنشب الحروب بين العرب والإثيوبيين، كان مصير الأسرى العبوديّة. والشيء ذاته كان يجري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، والإمبراطوريّة البيزنطيّة.

وعندما انتصر الإسلام، نبذ القرآن كلّ شكلٍ من عدم المساواة بين العرب والسود، لكن كلّ شيءٍ تغيّر بإنشاء إمبراطوريّةٍ شاسعة، سواء عن طريق الجهاد أم غيره، فمنذئذ تميّز العرب عن غيرهم ممّن اعتنقوا الإسلام، باتّخاذهم وضعًا متميزًا، بينما خضع المهزومون إلى التزاماتٍ مختلفة.

1. Mark Colvin، Historian dismisses Tasmanian aboriginal genocide “myth”، Thursday، 12 December ، 2002. http://www.abc.net.au/pm/stories/s746130.htm

2. “Report of the Aborigines Committee”. Parliamentary Papers، House of Commons and Command، Volume 4، aborigines committee 19 february 1831 ; Nicholas Clements، op. Cit، pp. 42144-141 ،101-95 ،53-52 ،43-.

ومع أنّ الشريعة لا تفاضل بين الناس إلّا بالتقوى، إلّا أنّ العرب ميّزوا سريعًا بين ذوي البشرة البيضاء (الشركس، الأرمن، السلاف) وذوي البشرة الداكنة (في أعالي النيل وإفريقيا)، وصنّفوهم بأنّ هؤلاء أكثر بدائيةً، وربما كانوا عبيدًا في الواقع، وهكذا كان للعرب عبيدٌ بيض، وعبيدٌ من السود، كانوا جنودًا في أغلب الأحيان. وفي القرون التالية، ورث العثمانيون هذا الوضع إلّا أنّهم في القرن التاسع عشر وبتأثير من الغربيين ـــ من وجهة نظر مارك فيرو ـــ حاولوا وضع حدٍّ لتجارة الرقيق، إلّا أنّها استمرت في الحجاز وحوالي طرابلس الغرب.

وكان الرق مستمرًّا بوصفه شأنًا داخليًّا، لكنّه أقلّ قسوة بكثيرٍ من الرقّ الذي كان يمارسه الأوربيون، عندما كانوا ينقلون السود إلى ما وراء الأطلسي من أنغولا والكونغو وإفريقيا العربيّة[١]. وعندما أُلغي الرقّ في الغرب، انضمّ الأوروبيّون إلى الرقّ الذي كان يمارسه العرب، وإذا لم يبقَ إلّا القليل من آثار هؤلاء السود في العالم العربي الإسلامي، في العراق، والمغرب، ومصر، فذلك لأنّ جزءًا من الرجال الذين جُلبوا عن طريق تجارة الرفيق كانوا يُخْصَون، وكانت ظروف حياتهم كانت من الصعوبة حيث تجاوز معدل وفياتهم معدل السكّان الآخرين. فكانت حياتهم مريعة، كما كتب إنكليزي معاصر عاش في مصر في القرن التاسع عشر: «خمس سنوات أو ست، كانت كافية للقضاء على جيل من العبيد، ولا بد في نهاية هذه الفترة من تجديد العدد الكلي». وكانت تونس الدولة العربيّة الأولى تحت الهيمنة العثمانيّة التي تلغي الرقّ، في عام (١٨٤٦). لكن هذا الإلغاء لم يصبح فعليًّا إلّا تحت الاحتلال الفرنسي، بعد عام (١٨٨١).

وبدأت العملية في الجزء التركي من الإمبراطوريّة العثمانيّة، نحو عام (١٨٣٠)، بالنسبة للبيض أولاً من جورجيين وشركس، ثم للسود في الحجاز (١٨٥٧). إلّا أنّ الرقّ ظلّ نشيطًا في بعض أجزاء العالم العربي فقد ألغي في (المملكة السعودية) الجزيرة العربيّة عام (١٨٦٢)، وألغي في موريتانيا عام (١٩٨٠)[٢]. وهنا يجب علينا التذكير، أنّه في الوقت الذي بدأ العالم يتجه فيه نحو إلغاء الرقّ، واصلت الدولة العثمانيّة أنشطتها في هذا المجال. حيث واصلت الدولة العثمانيّة حتى سقوطها، اصطياد البشر والاتّجار بهم، وتحوّلت الإمبراطوريّة المريضة إلى سوقٍ كبيرٍ للنخاسة، وكانت ليبيا أكبر مستودعاتها التي التقت عندها خطوط قوافل الصيد، وأقامت فيها ما عُرف بـ(زرائب العبيد)، على الرغم من الإدانة الدوليّة الصريحة لتلك الممارسات. إذ كانت تجارة الرقيق أحد أهمّ

١. مارك فيرو، حول تجارة الرقيق، الاستعمار: الكتاب الأسود (١٦٠٠-٢٠٠٠م)، ص١١١-١٢٠.

٢. المصدر نفسه، ص١١٣-١١٤.

الأعمدة الاقتصاديّة والعسكريّة التي قامت عليها الدولة العثمانيّة، منذ أسس محمد الفاتح أوّل سوقٍ للنخاسة في القسطنطينيّة، كما أنشأ السلطان مراد الأول جيشًا كاملاً من العبيد، ساعده على تثبيت دعائم ملكه، ومواصلة عمليّات الغزو هنا وهناك، حيث كان يتمّ أسر الصبية والفتيات من بلاد البلقان والمجر العليا، وتحويلهم إلى رقيقٍ يخدمون في القصور والجيوش العثمانيّة.

هذا، وقد فرضت الدولة العثمانيّة على المناطق المسيحيّة الخاضعة لها، ما يعرف بضريبة البشر (الدوشريمة)، كنوعٍ من الجزية، حيث تلتزم تلك المناطق بتسليم عددٍ من أبنائها سنويًّا، وبشكلٍ قسري، إلى مندوبي السلطنة، ليخدموا كعبيدٍ في البلاط العثماني، حيث يجري تدريبهم على المهارات العسكريّة المختلفة، ومن هؤلاء تكونت كتائب الإنكشاريّة. هذا وقد أجرت الدولة العثمانيّة حملاتٍ مخصوصةً عرفت بغارات الرقيق، استهدفت اصطياد البشر، ووضعهم في معسكراتٍ تمهيدًا لبيعهم في أسواق النخاسة، حيث جنت الإمبراطوريّة مكاسب ماديّةً هائلة، جعلت من السلطان العثماني النخّاس الأكبر في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفي الوقت الذي بدأ العالم يتّجه فيه نحو إلغاء الرقّ، واصلت الدولة العثمانيّة أنشطتها في هذا المجال، وإجبار المستعبدين على العمل كمرتزقةٍ في الجيوش، أو الخدمة في المزارع.

وعرفت القصور العثمانية عادة (خصاء العبيد)، كما انتشرت العبوديّة الجنسيّة على نطاقٍ واسعٍ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأصبحت بعض المناطق العربيّة هدفًا لهذا النوع من العبودية، بعد التضييق الذي مارسته الدول الأوروبيّة على تجارة الرقيق البيض. وعلى الرغم من إجبار الإمبراطوريّة العثمانيّة على التوقيع على معاهدة بروكسل في العام ١٨٩٠ لتجريم الرقّ، استمرت تجارة العبيد السريّة، التي اعتمدت على اصطياد سود البشرة من منطقة البحيرات العظمى وشرق أفريقيا، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحتفظ بعددٍ من الرقّ في قصره، وكذلك فعل الأمراء ورجالات الدولة[١].

في حين انتقد مارك فيرو موقف ما وصفهم بـ(أعداء السياسة الاستعماريّة) العرب تجاه تجارة

١. وللمزيد من التفصيل، ينظر: سامح إسماعيل، كيف حول العثمانيون ليبيا الى مستودع اتّجار بالبشر. ٢٠٢٠/٠٦/٢٨. موقع حفريات

https://hafryat.com/ar/blog/ ؛

عبد الحق الصنايبي، الرقّ في العهد العثماني: أدوات للاستعباد وسيوف للاستبداد،

https://whiteink.info/wp-content/uploads/202106//AA_21_02_AR.pdf

العرب بالرقيق، حيث قال: «إنّ ذكر المظالم التي ارتكبها ضحايا الاستعمار هو من المحرمات نوعًا ما، بالنسبة لأعداء السياسة الاستعماريّة الذين صاروا مناصرين العالم الثالث، فهم بقدر ما ينددون بعنصريّة الأوربيين، وبالطريقة التي مارسوا فيها تجارة الرقيق، يظلّون متكتمين على الممارسات ذاتها التي ارتكبها العرب»[١].

ومن ثم يبرر ذلك الموقف لسببين:

السبب الأول: من دون شك هو أنّ هذه الممارسات كانت استخدمت ذريعةً للمطامع الإمبرياليّة في القرن التاسع عشر.

السبب الثاني: في زمن الاستعمار، حلّ العمل القسري محلّ العبوديّة؛ فلم تكن هناك ضرورةٌ لدى المعادين للاستعمار للتنديد بما سبق.

ومنذ انتهاء الاستعمار يرتد صدى السكوت النسبي عن الإساءات التي ارتكبها الغزاة غير الأوربيين من العرب أساسًا، السكوت عن العنصريّة التي كانت تجتاح بلاد الإسلام. إذ يبدو أنّ خرافة انعدام الأحكام العنصريّة المسبقة لدى العرب، ولدت عندما تبيّن المبشّرون المسيحيّون في إفريقيا السوداء أنّ نجاحهم كان أقلّ من نجاح الدعاة المسلمين وهذا يرجع، من وجهة نظره، إلى أنّ أي أسود يدخل الإسلام يصبح حرًّا متساويًا مع الفاتحين؛ ولكنّه يرجع أيضًا لكون الدعاة سودًا، بينما كان المبشّرون المسيحيّون بيضًا. ويعطي مثالاً جيدًا عن هذه الحالة في فيلم سامبين عثمان (Semben Ousmane، Ceddo) الذي تجري أحداثه في السنغال.

ثم يعطي تقديراتٍ رقميّة عن تجارة الرقيق، لكنّه يسبقها بالإشارة إلى أنّه ليس ممكنًا التوصل إلى رقمٍ دقيقٍ يشمل عدد العبيد الأفارقة الذين نقلتهم سفن العبيد الأوربيّة فهناك عناصر ناقصة؛ لأنّ عدد العبيد الذين أركبوا، وعدد الذين أنزلوا لم يسجّل بدقةٍ في كلّ الرحلات، وهناك ثغرات في المجموعات المحفوظة، زد على ذلك أنّ أرقامًا تم تزويرها للإفلات من دفع الرسوم والجمارك، ولا تكون نتائج البحوث الدقيقة الصارمة عن أعداد الرقيق إلّا في حدّها الأدنى من معرفة الأعداد الحقيقيّة، كما يشير على وجه الخصوص، شارل بكر (Charles Becker) في ما يتعلّق بتجارة الرقيق الفرنسيّة، وجوزف إليكوري (Joseph Inikori) ما يتعلّق بتجارة الرقيق الإنكليزيّة.

لكون التجارتين الفرنسيّة والإنجليزيّة الأكثر أهميّة، تمثّل حدًّا أدنى قدره (٥،٢) ملايين،

١. مارك فيرو، حول تجارة الرقيق، الاستعمار: الكتاب الأسود (١٦٠٠-٢٠٠٠م)، ص١١٢.

وعلى الأصح ما بين (٥,٥ و٦) ملايين أفريقي[١]. ومع أنّه بحث، كما يقول (بلا جدوى)، عن أيّ أثرٍ للعنصريّة في القرآن الكريم، لكن العنصريّة، كما جرى في الغرب المسيحي، نمت بفعل الفتوحات والتلاقي مع الشعوب التي أخضعت. وقد وضعت هذه الشعوب منذ وقتٍ مبكّرٍ موضع التساؤل أسس هذه العنصريّة العربيّة. مستشهدًا بمقالة، كتبها الجاحظ منذ القرن التاسع، وهو من أصلٍ إفريقي جزئيًا على الأرجح، في (فضل السود على البيض) كانت تدافع عن الزنج، وهم من سود إفريقيا الشرقيّة والبانتو، ضدّ الحاطين من شأنهم، فكان متقدمًا بعشرة قرونٍ على الكتّاب الفرانكفونيين في إفريقيا العربيّة أو الكاريبي. ثم كانت هناك مؤلفاتٌ أخرى على هذا النمط بالعربيّة والتركية. لكن النماذج النمطية المعاكسة أخذت تتغلب شيئًا فشيئًا، وأكثرها شيوعًا تنصلت بما ينتجه السود هم أنفسهم: «أنت زنجي بأنفك وشفتيك، يقول إفريقي لآخر، وأنت أيضًا زنجي بلونك وإبطيك»[٢]. أمّا النساء «ففيهن نقائص عدة، فكلّما كن أكثر سوادًا كانت وجوههن دميمةً وأسنانهن مدببة (...) لا يستطعن توفير أيّ متعةٍ بسبب رائحتهن وخشونة أجسامهن». إذ يُحكم على السود، بوجه الإجمال، أنّهم يحبون الهزل والموسيقى، وأنّهم ضعيفو التقوى. وبخلاف هذا تجد بالنسبة لسود آخرين نماذج نمطيّة مماثلة لتلك التي اصطنعها الأوربيّون كالقوة الجنسيّة والشبق، إضافة إلى أوصافٍ مناقضة للسابقة[٣].

وقد شكل وصول البرتغاليين، بالنسبة لمارك فيرو، منعطفًا، حتى وإنْ اختلفت هذه التجارة قليلاً عن أشكال النقل التي سبقتها في البداية، بعد حمولة العبيد الأولى في عام (١٤٤٤). وذلك انطلاقًا من أنّ البرتغاليين كانوا يهتمون على وجه الخصوص بالذهب والتوابل والعاج؛ ولذا كانوا يبادلون العبيد الذين كانوا اشتروهم أو أسروهم بالذهب. وأول مستودع لهم، في ساو تومي (Sao Tome)، أصبح فيما بعد سوقٌ وأرضٌ مغروسة بقصب السكر، وكانت في الأصل أول تجارة كبرى للرقيق انطلقت من الكونغو؛ فقد كانت انفصلت عن التجارة السابقة مع العرب وهذه المبادلات المتفق عليها من ملوك الكونغو، كانت تجري بوتيرة مائتي عبد في السنة منذ نهاية القرن الخامس عشر في الوقت الذي كان الإسبان يبدون سكان الكاريبي. وحلّ التجّار الجنويون والبرتغاليّون محلّ العرب، فأعطى ذلك انطلاقةً حاسمةً لتجارة الرقيق انطلاقًا من ساو تومي والأوائل في عبور الأطلسي، الذين جاؤوا من هذا الجزء من إفريقيا، ومن ذلك أخذ الأسرى يرحلون مباشرة من

١. المصدر نفسه، ص١١٤-١١٥.

٢. المصدر نفسه، ص١١٦.

٣. المصدر نفسه، ص١١٥-١١٦.

الكونغو ثم من لواندا، وتجاوز عدد الأفارقة المرحلين الخمسة آلاف إلى سنة آلاف في العام. وقد أسهم الإسبان والهولنديون إلى جانب البرتغاليين في النقل إذ إنّ القليل منهم كانوا يريدون الإقامة في أمريكا. وكانت المهمة الموكلة للعبيد في العالم الجديد هي العمل في مزارع قصب السكر أساسًا، كما كانت في ماديرا أو جزر الكناري.

كما وقف الكاتب عند (سانتو دومينغو) مهد أول ثورة عبيد ناجحة. كانت سانتو دومينغو، أو ما تعرف اليوم بـ هايتي وجمهورية الدومينيكان، مسرحًا لأول ثورةٍ ناجحةٍ للعبيد في العالم الجديد. هذه الثورة التاريخيّة، التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر، شكّلت نقطة تحوّلٍ في تاريخ العبوديّة والاستعمار في الأمريكيتين. فكانت الثورة نتيجة الظروف القاسية للعبوديّة: حيث عانى العبيد في سانتو دومينغو من ظروف عملٍ قاسيةٍ ومعاملةٍ وحشية. كما تأثّر العبيد بالأفكار الثوريّة التي انتشرت في أوروبا، مثل الثورة الفرنسيّة، التي دعت إلى الحرية والمساواة.

ولما كان عدد العبيد في الجزيرة يفوق عدد المستعمرين بشكل كبير، منحهم ذلك قوةً عسكريةً هامة. وقد شهدت الجزيرة العديد من الانتفاضات الصغيرة قبل الثورة الكبرى التي اندلعت في عام ١٧٩١ بقيادة شخصيّاتٍ بارزةٍ مثل توسان لوفرتير. استمرت الحرب بين الثوار والفرنسيين والإسبان لسنواتٍ عديدة. وتمكّن الثوار أخيرًا من تحقيق الاستقلال في عام ١٨٠٤، وأصبحت هايتي أول دولةٍ مستقلةٍ في الأمريكيتين بقيادة شعب أسود. ومن هنا تأتي أهمية الثورة: بوصفها رمزًا للتحرر: إذ أصبحت ثورة سانتو دومينغو رمزًا عالميًّا للتحرّر من الاستعمار والعبودية. فضلاً عن، تأثيرها على الحركات المناهضة للعبوديّة، فقد ألهمت الثورة العديد من الحركات المناهضة للعبوديّة في العالم، وخلقت تحدّيات للنظام الاستعماري. فقد أثبتت الثورة أنّ النظام الاستعماري ليس أبديًّا، وأنّ المستعمرات يمكن أنْ تحقق الاستقلال. وهذا الكتاب يقدم تحليلاً شاملاً لثورة سانتو دومينغو[١].

يرى كتاب (الاستعمار الكتاب الأسود) أنّ العبودية في جنوبي الولايات المتحدة كانت جزءًا لا يتجزأ من المشروع الاستعماري الأوروبي في الأمريكيتين. فبعد استيلاء الأوروبيين على الأراضي الأمريكيّة الأصليّة، احتاجوا إلى قوةٍ عاملةٍ رخيصةٍ لتنمية اقتصادياتهم الزراعيّة، ولا سيّما في جنوبي البلاد، حيث ظهرت، منذ القرن السابع عشر، مزارع كبرى للتبغ وقصب السكر والرز والقطن. وهكذا، شغل الرق وضعًا مركزيًا في مجتمع الولايات المتحدة وأقتصادها؛ إذ جرى استيراد ملايين

١. المصدر نفسه، ص١٢٠-١٢٥.

الأفارقة للعمل في مزارع القطن والتبغ وقصب السكر وغيرها، وذلك استجابة لطلبٍ ملحٍّ على اليد العاملة. وقد كان نظام العمل القسري هذا شديد الاقتران بهذه المزارع، التي تلائم العمل الجماعي والزراعة الاستعماريّة على نطاقٍ واسع. وقد مثل بهذا المعنى المحرك الرئيس لاستعمار أميركا الشمالية من قبل الأوربيين[١].

كما أنّ كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) يسلط الضوء على أنّ العبودية جذرٌ للعنصريّة، حيث يوضّح الكتّاب كيف أنّ العبوديّة أسّست نظامًا عنصريًّا عميقًا في الولايات المتّحدة، على اعتبار أنّ الرقّ والعنصريّة أثر أحدهما على الآخر في سياق خصوصيّة الاستعمار الأمريكي الشمالي. حيث تم اعتبار الأفارقة أدنى من البيض، نهاية القرن السابع عشر، عندما حدّدت مجموعةً من القوانين ظروف السود وعزلتهم عن المجتمع الاستيطاني الأبيض[٢]. ونحو عام (١٧٥٠) كانت العبودية تمثّل نظام العمل الرئيس في مستوطنات جنوبي الولايات المتّحدة. وهذا النظام العنصري استمر لعقودٍ طويلةٍ بعد إلغاء العبودية ولا يزال له آثارٌ عميقةٌ على المجتمع الأمريكي حتى اليوم.

وهكذا امتازت مناطق العبوديّة في الولايات المتّحدة بتفاعلاتٍ دائمةٍ بين السود والبيض، سرعة في تأكل الأرث الأفريقي. على عكس الكاريبي، حيث احتفظت غالبية السود بممارساتٍ ثقافيّةٍ أفريقيّةٍ عديدة. وبينما كان يعد عشرة من السود مقابل كلّ أبيض في جامايكا عشية تحرير العبيد، كان المقدار اثنين من البيض لكلّ أسود في جنوبي الولايات المتّحدة.

إنّ العبوديّة في جنوبي الولايات المتّحدة نظام، وفق كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود)، يقوم على السلب والقسوة والظلم. إلّا أنّ العبيد في حياتهم اليومية كانوا يشعرون بالأفراح والآلام التي يعرفها أيّ إنسانٍ آخر، وكانت علاقاتهم مع البيض تذهب أبعد من مجرد استغلال قوة عملهم. فقد استطاعوا تطوير ثقافةٍ خاصةٍ لكنّها هشّة. وفي علاقاتهم مع أسيادهم، كان بالإمكان تواجد الحنان والحميمية مع الخوف والعنف المجاني. إلّا أنّه لا يجب أنْ نغفل عن كون هذه العلاقات خاضعةً لمقتضيات المنفعة، التي تتطلب تعاون العبيد بالحد الأدنى، وبالتالي بعض التنازلات من الأسياد. وكانت تعتمد هذه التنازلات على الأوضاع المحلية أي طبيعة المزرعة، ودرجة ترابط السود فيما بينهم، وشخصية الأسياد. إذ كان بعضهم، ولا سيّما النفعيون، يلجأون إلى حوافز اقتصاديّةٍ كالأجور النقديّة، أو قطع الأرض، تعطى لمجموعات العبيد الذين يجنون أكبر كميّةٍ من القطن، على سبيل

١. باب نديايي، العبيد في جنوبي الولايات المتحدة، المصدر نفسه، ص١٢٧.

٢. المصدر نفسه، ص١٢٨.

المثال. حتى إنّ بعض المؤرّخين يتحدّثون فيما يتعلّق بمناطق زراعة الأرز في كارولينا الجنوبية وجورجيا، عن ظهور طبقة فلاحين أوليين، على غرار عبيد الكاريبي أو أقنان روسيا الذين كانوا يعملون بعض ساعات لحسابهم الخاصّ ويسوقون محاصيلهم[١]. ويشرح الكتاب كيف أنّ العبودية كانت المحرّك الرئيس للاقتصاد في جنوب الولايات المتّحدة قبل الحرب الأهليّة. فمحاصيل مثل القطن والتبغ، التي كانت تعتمد بشكلٍ كبيرٍ على عمل العبيد، كانت تصدر إلى الأسواق العالمية وجلبت أرباحًا طائلة لملاك العبيد. كما يسلّط الكتاب الضوء على الدور الذي لعبته العبودية في اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية. فاختلافات الآراء حول العبوديّة بين الشمال والجنوب أدّت إلى انقسامٍ عميقٍ في المجتمع الأمريكي، ممّا أدّى في النهاية إلى الحرب[٢].

يقدّم الكتاب العديد من الأمثلة التاريخيّة والتحليلات التي توضّح كيف كانت العبوديّة مرتبطةً بالاستعمار. من بين هذه الأمثلة: مزارع القطن: إذ يصف الكتاب بالتفصيل الحياة القاسية التي كان يعيشها العبيد في مزارع القطن، وكيف كانوا يعملون لساعاتٍ طويلةٍ في ظروف قاسية. يشرح الكتاب كيف كانت تجارة الرقيق عبر الأطلسي واحدةً من أكبر الجرائم ضدّ الإنسانيّة في التاريخ، وكيف كانت الدول الأوروبيّة متورطةً بشكلٍ مباشرٍ في هذه التجارة، ويسلط الكتاب الضوء على جهود الناشطين الذين عملوا على إلغاء العبودية، مثل فردريك دوغلاس وهاريت توبمان. وخلاصة القول أنّ كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) يقدم لنا فهمًا أعمق لكيفيّة ارتباط العبودية في جنوبي الولايات المتّحدة بالمشروع الاستعماري الأوروبي. إذ يوضّح الكتاب أنّ العبودية كانت أكثر من مجرد مؤسّسة اقتصاديّة، بل كانت نظامًا اجتماعيًّا وسياسيًّا قائمًا على العنصريّة والاستغلال.

المحور الثالث

الهيمنة والمقاومة

وفي المحور الثالث، الذي جاء بعنوان (هيمنة ومقاومة)، يسلّط الكتاب الضوء على ديناميكيات القوة والمقاومة بين المستعمِرين والشعوب المستعمَرة، وأبرز جوانب الهيمنة والمقاومة في العالم الجديد، وآسيا، وإفريقيا. ففي القسم الأول منه الذي حمل عنوان (العالم الجديد) أشارت الكاتبة، المثيرة للجدل في سياق الدراسات الاستعماريّة والإمبريالية (كارمن برنار)، في المبحث الأول منه الذي جاء بعنوان (الإمبرياليّة الإيبيرية) أنّ أول شكلٍ عصريّ للإمبرياليّة الغربيّة، كان من فعل أسبانيا

١. المصدر نفسه، ص١٣٠ وما بعدها.

٢. المصدر نفسه، ص١٣٢-١٣٤وما بعدها.

والبرتغال. إذ بدأ التوسّع الإيبيري في القرن الخامس عشر، مع الرحلات الاستكشافيّة البرتغاليّة الأولى على طول السواحل الإفريقيّة. ذلك لأنّ العالم الجديد محور لمجموعٍ تتجاوز شبكاته وحدوده النطاق الأمريكي؛ ولذلك ينبغي النظر فيها على الصعيد العالمي. على أنّ الإمبرياليّة الإيبيريّة كانت من طبيعة مخالفة للإمبراطوريتين البريطانيّة والفرنسيّة اللتين تكونتا نهاية القرن التاسع عشر، وفق سياقاتٍ بيّنة الاختلاف. فالاستيلاء (Conquete) وهو مصطلحٌ شائعٌ في كتابات أمريكا الإسبانيّة التاريخيّة، وكان امتدادًا بشكل ما للاستعادة (Reconquista)، أي إعادة استيلاء المسيحيين على الممالك الإسلاميّة التي تمت في شبة الجزيرة الإيبيريّة منذ بداية القرن الثامن. إذ علاوةً على المصالح السياسيّة والاقتصاديّة لاسبانيا والبرتغال، كان هناك المحرك الأيديولوجي القوي المتمثّل في تنصير وتوسيع المسيحيّة على حساب الإسلام[١].

قدمت كارمن برنار تحليلاتٍ عميقةً حول الدور الذي لعبته الإمبرياليّة الإيبيريّة (الإسبانيّة والبرتغاليّة) في تشكيل العالم الحديث؛ إذ ربطت بين العنف الاستعماري والعنصريّة، مشيرةً إلى أنّ العنف ضدّ الشعوب المستعمَرة كان مدفوعًا بأيديولوجياتٍ عنصريةٍ سعت إلى تبرير الهيمنة الاستعماريّة. كما دعت برنار إلى إعادة تقييم الدور التاريخي للإمبرياليّة الإيبيريّة، مؤكدةً على تأثيرها الطويل الأمد على أمريكا اللاتينيّة وأفريقيا وآسيا، ومؤكدةً على استمراريّة الإمبرياليّة عبر أشكالٍ جديدةٍ مثل الاقتصاد العالمي، والثقافة الشعبيّة، والسياسات النيوليبراليّة. مع ذلك، انتقد بعض الباحثين برنار لتعميمها المفرط في تحليلاتها، حيث جرى تطبيق أفكارها على سياقاتٍ تاريخيّةٍ وجغرافيّةٍ مختلفةٍ دون مراعاة خصوصيّات كلٍّ منها. فيما يرى بعض النقاد أنّ برنار ركّزت بشكلٍ كبيرٍ على العنف الاستعماري، متجاهلةً جوانب أخرى من الإمبرياليّة مثل التبادل الثقافي والتأثيرات المتبادلة بين المستعمِر والمستعمَر. وعلى الرغم من هذه الانتقادات، إلّا أنّ لأفكار برنار أهميّة، كونها تساعدنا على فهم جذور العديد من المشكلات المعاصرة في العالم النامي، مثل عدم المساواة، الاستغلال، والعنف. كما قدّمت برنار تحدّيًا للنظريّات التقليديّة حول الإمبريالية، ودعت إلى إعادة التفكير في الطرق التي ندرس بها التاريخ الاستعماري. فضلاً عن ذلك، تسهم أفكار برنار في دعم نضالات الشعوب المستعمَرة سابقًا من أجل العدالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

إنّ كارمن برنار شخصيّةٌ أكاديميّةٌ مهمّةٌ قدّمت إسهاماتٍ قيمةً في مجال الدراسات الاستعماريّة

١. المصدر نفسه، ص١٤٥-١٤٦.

والإمبريالية[١]. وعلى الرغم، من الانتقادات الموجّهة إليها، فإنّ أفكارها لا تزال مثيرةً للجدل وتستحق الدراسة والتحليل. وفيما يخصّ (الإمبرياليّة الإيبيريّة) في الكتاب الأسود، تشير برنار إلى سيطرة الدول الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) على أجزاءٍ واسعةٍ من العالم، خاصة في الأمريكيتين وأفريقيا وآسيا، خلال عصر الاستكشاف والاستعمار. وذلك وفقًا لأنماط من الهيمنة، مثل: الاستعمار المباشر الذي هو سيطرةٌ سياسيّةٌ واقتصاديّةٌ كاملةٌ على الأراضي والموارد، والاستعمار غير المباشر الذي هو التأثير على السياسات الداخليّة للدول المستعمَرة من خلال شركاتٍ خاصّةٍ أو حكوماتٍ عميلة، والاستعمار الثقافي المتمثّل بفرض القيم والتقاليد الغربيّة على الشعوب المستعمَرة. في المقابل جوبهت هذه الأنماط من الهيمنة بأشكالٍ مختلفةٍ من المقاومة، كالمقاومة المسلّحة (حروب عصابات، ثورات)، والمقاومة السلمية (مقاطعات، إضرابات، حركات تحرير وطنية)، والمقاومة الثقافية (الحفاظ على الهوية الثقافية، تطوير الفنون والأدب).

وفي المبحث الثاني من القسم الأول من المحور الثالث كتب جاك بولوني - سيمار تحت عنوان (أمريكا الإسبانيّة: استعمار نظام قديم) عن الاستعمار الإسباني في الأمريكيتين الذي جرى ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، والذي تشكّل (المغامرة القشتاليّة) مثاله الأكمل، بتميّزها في هذا عن التجارب السابقة، واللاحقة على وجه الخصوص، فيما وراء العلاقة الاستعماريّة القائمة على العنف والقهر اللذين يجمعان بين كلّ أوضاع الغزو والإخضاع، والتي عدّها نقطة تحوّلٍ في تاريخ التوسّع الأوربي، وهي واحدةٌ من أطول وأعمق الفترات في تاريخ القارة التي امتدت لقرونٍ عديدة، وشكّلت بشكلٍ كبيرٍ الهويّة الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة للعديد من الدول الأمريكيّة اللاتينيّة.

بدأ الاستعمار الإسباني مع رحلة كريستوفر كولومبوس عام ١٤٩٢، التي أدّت إلى الوصول إلى الكاريبي و(اكتشاف) الأمريكيتين. وأكثر منه المستكشفون الإسبان، مثل هرنان كورتيز إلى المكسيك، وفرنسسكو بيزارو إلى البيرو، بغزو الإمبراطوريات الأصلية القوية مثل الأزتيك والإنكا، واستعمرت أراضيهم. كان الاستعمار الإسباني في الأمريكتين مرحلةً حاسمةً في تاريخ القارّة، إذ شكّل هويّتها الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة.

على الرغم من الآثار السلبيّة للاستعمار وشدّة الدمار الذي ألحقه غزو أمريكا بالشعوب الهندرية وبُناهم الاجتماعيّة ونظم معتقداتهم، إلّا أنّه ترك أيضًا إرثًا غنيًّا ومتنوّعًا، طبقًا لكيفيّات

١. المصدر نفسه، ص١٤٥-١٨٩.

وأدوات معياريّة، وقضائيّة، وضريبية، وسياسيّة، لم تعطِ الخصوصيّة للعلاقة الاستعماريّة التي رسّخها الغزو الإسباني فقط، بل توضّح على وجه الخصوص قدرته على البقاء وإعادة الإنتاج[١].

ويرى الكاتب، أنّ العنف هو في أصل العلاقة الاستعماريّة؛ لأنّه ترسّخ مع الغزو، وما جعل توطيد القوة الإسبانيّة ممكنًا هو تهديم البنى الهامة للأطر الاجتماعيّة الموجودة، بقدر ما كانت الأسلحة وضروب القهر. وما سمح للنظام بالاستمرار وإنتاج نفسه، أكثر من تعاون نخبة الزعامة، هو إضعافهم أول الأمر، ثم اندماجهم في الجهاز الإداري والآليات الاقتصاديّة التي كانوا ينتفعون منها إلّا أنّه إذا وجدت بعض عناصر التمفصل هذه في أشكال أخرى من الاستعمار، فمساحات الحراك، وهوامش المناورة المتاحة التي انتفع منها الهنادرة، كانت مهمةً بصفةٍ خاصةٍ في أمريكا الإسبانية. إذ هنا تكمن أصالة التجربة الأمريكية، في قابليتها على الإدماج، من خلال الفضاءات المتعدّدة للمشاركة التي كانت تتركها للسكّان.

وانطلاقًا من مؤسساتٍ إسبانيّة، ومن الأشكال الجديدة للعلاقات الاجتماعيّة أعيد بناء المجتمعات الهندريّة التي أظهرت مقدرةً مرموقةً على المبادرة. فلم يكن الهنادرة، بهذه الصفة رعايا للاستعمار وحسب، بل كانوا أيضًا الأطراف الفاعلة في تطوّره التاريخي. وكان دور الامتزاج ودور القضاء، في هذه العمليّة المزدوجة، مركزيين للسماح باستقرار المجتمع الاستعماري. وعليه ليست ثنائية الاستغلال والمقاومة هي التي ينبغي إبرازها فقط، بل كل أشكال التكيّف من جهة، والمواضع التي كانت الرابطة الاستعماريّة تنجح فيها، ونجحت، في إنتاج نفسها، من الجهة الأخرى. فالعنف بوصفه أسّس على الغزو، كان في قلب النظام، وكانت الأحكام العنصريّة المسبقة التي تغطّي تقسيم السكّان إلى مجموعاتٍ، طبقًا لنموذجٍ تشريعيّ قديم، تنتقل على وقع التحوّلات المتتالية. وإذا ما كان الاستغلال، وصنوف الإكراه والتجاوزات غير مقتصرةٍ على العلاقة الاستعماريّة، فإنّ الأشكال التي اتّخذتها هذه العلاقة في أمريكا الحديثة تميّزها عن غيرها من التشكيلات الاجتماعيّة، من خلال آليةٍ مزدوجةٍ تجمع بين الإدماج والاستبعاد في آنٍ معًا؛ فهي تعترف قانونيًا بموقع لأولئك الذين كانوا في موضع التبعية، مع إتاحة إمكاناتٍ محدودةٍ للحراك والامتزاج الاجتماعي. ويظلّ القضاء أداةً غير متوازنةٍ في تحقيق العدالة وضبط النزاعات، ضمن أشكال متعدّدةٍ من التمفصل الاجتماعي. أدّى هذا النظام إلى استغلالٍ شديدٍ للسكّان الأصليين، وتقسيم المجتمع الاستعماري إلى طبقاتٍ صارمة، حيث كان الإسبان البيض في أعلى الهرم، يليهم مزيج من إسباني وأصلي، ثم الأفارقة،

١. المصدر نفسه، ص١٩١-١٩٢.

وأخيرًا السكّان الأصليون[١]. وبطبيعة الحال، ترك الاستعمار الإسباني إرثًا ثقافيًا واجتماعيًا عميقًا في أمريكا اللاتينيّة، حيث يظهر ذلك في اللغة، الدين، العادات والتقاليد، والهندسة المعمارية. فضلاً عن، التفاوت الاجتماعي الكبير، الذي نشأ خلال فترة الاستعمار الذي لا يزال يشكل تحدّيًا كبيرًا للعديد من دول أمريكا اللاتينية حتى اليوم.

وفي المبحث الثالث (ملحق: التداخلات الإمبريالية والكفاح في أمريكا اللاتينية)، يتناول الكتاب تنوّع طبيعة حركات الاستقلال السياسيّة من وطنيّةٍ وماركسيّةٍ وشعبويّةٍ وكاستروية وماويّةٍ أو أهليّة ضد الإمبرياليّة، التي بدأت في أمريكا اللاتينيّة في نهاية القرن الثامن عشر أوائل القرن التاسع عشر، مستوحاةً من الثورة الفرنسيّة وحرب الاستقلال الأمريكيّة. فكانت المكسيك أوّل مستعمَرةٍ إسبانيّةٍ تحصل على استقلالها عام ١٨٢١، وتلتها العديد من الدول الأخرى في إعلان استقلالها، مثل الأرجنتين، وتشيلي، وبيرو[٢].

وفي المبحث الرابع (غويان الفرنسيّة: من الفردوس إلى جحيم منفى الأشغال الشاقة) يستعرض الكاتب باسكال كورنويل، غويان الفرنسيّة، تلك البقعة الاستوائيّة الواقعة في شمال أمريكا الجنوبيّة، التي تحمل في تاريخها كثيرًا من الأوجاع والآلام. فقد عانت هذه المنطقة قرونًا من الاستعمار الفرنسي، والذي تحول في بعض فتراته إلى نظامٍ قمعيّ لا يرحم، خاصة مع استحداث منفى للأشغال الشاقة، عن طريق قانون ٣٠ اذار ١٨٥٤، الذي كان رمزًا للظلم والقهر. حيث بدأت فرنسا في الاستيلاء على أجزاءٍ من غويانا في القرن السابع عشر، وسرعان ما حوّلتها إلى مستعمَرةٍ، تهدف إلى استغلال مواردها الطبيعيّة، ومن ثم إلى منفى للمجرمين بإرسال المجرمين والمتمردين إلى مؤسّسة (مانا) في غويان كمستوطنة عقابٍ وعاصمة للجريمة.

ومع مرور الوقت، تحوّلت غويانا إلى سجنٍ كبير، حيث أُنشئت معسكراتٌ للأشغال الشاقة لاستقبال المجرمين من فرنسا. كانت هذه المعسكرات تقع في مناطق نائيةٍ وقاسيةٍ في الشمال الغربي من غويان، وكان يتمّ فيها تعذيب السجناء وإجبارهم على العمل في ظروفٍ غير إنسانيّة، حيث كان يتم نفي أخطر المجرمين إليها. وكان معسكر شافران الأقرب إلى مانا أسوأ المعسكرات، الذي لا يقلّ في فظاعته عمّا ارتكبه النازيون في القرن العشرين[٣]. استمرّ نظام الأشغال الشاقة في

١. المصدر نفسه، ص١٩٢-٢١٠.

٢. المصدر نفسه، ص٢١١-٢١٧.

٣. المصدر نفسه، ص٢١٨-٢٢٨.

غويان حتى منتصف القرن العشرين، ثم أُلغي تدريجيًا. ومع ذلك، فإنّ آثار هذا النظام ما تزال موجودةً حتى اليوم، حيث يعاني العديد من سكّان غويان من تبعات الماضي. وبعد الاستقلال عن فرنسا، تحوّلت غويانا إلى إقليمٍ فرنسيّ فيما وراء البحار. ورغم التقدّم الذي أحرزته في بعض المجالات، إلّا أنّها لا تزال تواجه العديد من التحديات، مثل الفقر والبطالة والتهميش. وتعدّ قصة غويان الفرنسيّة قصةً مؤلمةً عن الاستعمار والظلم والمعاناة. ومع ذلك، فإنّ شعب غويانا يتميز بقوةٍ وإصرار، وهو يسعى جاهدًا لبناء مستقبلٍ أفضل.

ويتناول الكتاب أيضًا في ملحق التدخلات الإمبريالية والكفاح في أمريكا اللاتينيّة قصة (هايتي: من الهيمنة الفرنسيّة إلى الإمبرياليّة الأمريكيّة)، بقلم الكاتب ليسلي مانيغات، التي كانت أوّل دولةٍ للسود في التاريخ الحديث في الأمريكيتين تحرّر نفسها من الاستعمار، وكيف تحوّلت من هيمنة فرنسا إلى نفوذ الولايات المتّحدة. حيث كانت ثورة العبيد في هايتي، التي بدأت في عام ١٧٩١، حدثًا تاريخيًّا فارقًا؛ فقد تمكّن العبيد بقيادة شخصيات مثل توسان لوفرتير وهنري كريستوف من هزيمة القوى الاستعماريّة الفرنسية والبريطانيّة والإسبانيّة، وأعلنوا استقلالهم في عام ١٨٠٤. وعلى الرغم من هذا الانتصار التاريخي، واجهت هايتي تحدياتٍ كبيرةً بعد الاستقلال. فقد تعرّضت لعقوباتٍ اقتصاديّةٍ من قبل القوى الاستعماريّة السابقة، ممّا أضعف اقتصادها. كما شهدت البلاد صراعاتٍ داخليةً وحروبًا أهلية.

في أوائل القرن العشرين، بدأت الولايات المتّحدة تظهر كقوةٍ مهيمنةٍ في منطقة البحر الكاريبي. وقد استغلّت الولايات المتّحدة ضعف هايتي الاقتصادي والسياسي للتدخّل في شؤونها الداخلية. ففرضت الولايات المتحّدة احتلالاً عسكريًا لهايتي في عام ١٩١٥ استمر حتى عام ١٩٣٤. وتعدّ قصة هايتي مثالاً صارخًا على تدخّل القوى الاستعماريّة في شؤون الدول المستقلة. فقد عانت هايتي قرونًا من الاستغلال والنهب، ممّا أثّر بشكلٍ كبيرٍ على تطوّرها وتقدّمها[1]. على أيّة حال، يسهم تحليل فصل ليسلي مانيغات عن هايتي في فهمٍ أعمق للتحوّلات المعقّدة التي شكّلت تاريخ هذه الدولة الكاريبيّة والتنافس الاستعماري عليها.

يُعد ملحق دافيد نيكول عن الأيديولوجيّات والحركات السياسيّة في هايتي خلال المرحلة الممتدة بين عامي ١٩١٥ و١٩٤٦ إضافةً قيمةً لدراسة تاريخ هايتي المعقّد. هذه المرحلة التي شهدت احتلالاً أمريكيًّا للبلاد، ممّا أثر بشكلٍ عميقٍ على المشهد السياسي والاجتماعي. ويسعى

١. المصدر نفسه، ص٢٢٩- ٢٤٠.

هذا الملحق إلى تسليط الضوء على التفاعلات المعقّدة بين الأيديولوجيّات المحلّيّة (الوطنيّة، السودانيّة، الاشتراكيّة) والقوى الخارجيّة، وكيف شكّلت هذه التفاعلات هويّة الحركات السياسيّة الاحتجاجيّة الناشئة في ذلك الوقت[١].

وفي محور (آسيا) يُعدّ فصل توماس موفيس دراسةً معمقةً للاستعمار الهولندي في جزر الهند الشرقية؛ إذ يقدّم موفيس تحليلاً نقديًا للتاريخ الاستعماري الهولندي، مع التركيز على آثاره المدمّرة على السكّان المحليين والموارد الطبيعيّة. ويمكن إيجاز أبرز النقاط التي تناولها الفصل: بدايات الاستعمار الهولندي، حيث يبدأ الفصل بتتبع جذور الاستعمار الهولندي في المنطقة، بدءًا من وصول الشركات التجاريّة الهولنديّة في القرن السادس عشر. إذ يوضّح موفيس كيف تحوّلت هذه الشركات تدريجيًّا إلى قوةٍ سياسيّةٍ عسكريّة، وكيف قامت بفرض سيطرتها على الجزر تدريجيًا[٢]. كما يسلّط موفيس الضوء على النظام الاقتصادي الذي فرضه الهولنديون على جزر الهند الشرقية. ويوضح كيف استغلّ الهولنديّون الموارد الطبيعيّة الغنيّة للمنطقة، مثل التوابل والنفط، لصالحهم الخاص. كما يشير إلى أنّ هذا النظام الاقتصادي أدّى إلى استنزاف الموارد وتدهور الأراضي الزراعيّة. كما تناول الفصل أيضًا السياسات الاجتماعيّة والثقافيّة التي اتّبعها الهولنديون. ويوضح كيف قام الهولنديّون بتقسيم المجتمع المحلي، وفرضوا ثقافتهم ولغتهم على السكان الأصليّين. ويشير إلى أنّ هذه السياسات أدّت إلى تآكل الهويّة الثقافيّة للشعوب الأصليّة.

وسلّط موفيس الضوء على مختلف أشكال المقاومة التي قام بها السكّان المحلّيون ضد الاستعمار الهولندي. حيث يوضح كيف قام السكّان المحلّيون بتنظيم ثوراتٍ وانتفاضات، وكيف حاولوا الحفاظ على ثقافتهم وهويّتهم. ويختتم الفصل بتقييم الآثار طويلة الأمدٍ للاستعمار الهولندي على جزر الهند الشرقيّة. يوضح كيف أدّى الاستعمار إلى تفاقم الفقر واللامساواة، وتدمير البنية التحتيّة، وتقويض المؤسّسات السياسيّة والاجتماعيّة[٣]؛ ولذلك يعدّ فصل موفيس مساهمةً قيمةً في فهم التاريخ الاستعماري الهولندي. فهو يقدّم سردًا نقديًّا للتاريخ، ويكشف عن الجوانب المظلمة للاستعمار. كما يسلّط الضوء على أهميّة دراسة التاريخ الاستعماري لفهم التحديات التي تواجه العديد من الدول في العالم النامي حتى اليوم.

---

١. المصدر نفسه، ص٢٤١- ٢٤٣.

٢. المصدر نفسه، ص٢٤٧- ٢٥٢.

٣. المصدر نفسه، ص٢٥٢- ٢٧٥.

وللمزيد من التوضيح يستعرض الكتاب أمثلةٍ تاريخية:

ـ الاستعمار البريطاني للهند وأفريقيا، مقاومة الثوار الهنود، حركات التحرّر في أفريقيا.

ـ الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، ثورة التحرير الجزائرية.

ـ الاستعمار البلجيكي في الكونغو، وحشيّة الملك ليوبولد الثاني، مقاومة السكّان الأصليين.

ويشكّل فصل (الهند: القرن الاستعماري الأول) للمؤرّخ الفرنسي جاك بوشباداس مرجعًا هامًا لفهمٍ عميقٍ لآليات الاستعمار وتأثيراته على المجتمعات المستعمَرة. في الجزء المتعلّق بالهند خلال القرن الاستعماري الأول، يقدّم بوشباداس تحليلاً دقيقًا للعمليات المعقدة التي شكّلت هذا العصر الحاسم في تاريخ الهند، مركّزًا على الأسباب الاقتصاديّة والسياسيّة التي دفعت الشركات الأوروبيّة، ولا سيّما شركة الهند الشرقيّة، إلى غزو الهند. فبالإضافة إلى الرغبة في تحقيق الأرباح من التجارة، كانت هناك أهدافٌ جيوسياسيّةٌ تتمثّل في السيطرة على الممرات التجاريّة الحيويّة في المحيط الهندي. ويصف الكاتب كيف تحولت شركة الهند الشرقيّة تدريجيًا من كونها شركةً تجاريّةً يملكها مجموعةٌ من التجّار، وهدفها الرئيس هو الربح بالضرورة، إلى قوةٍ سياسيّةٍ عسكريّة، وكيف توسّع نفوذها في شبه القارة الهنديّة عبر سلسلةٍ من الحروب والمعاهدات. وخلال ذلك العهد عرفت الشركة في الهند باسم (الشركة راج)، حيث يشير هذا المصطلح إلى الحقبة التي حكمت فيها شركةُ الهند الشرقيّة الهندَ بشكلٍ مباشرٍ بتفويضٍ من الحكومة البريطانيّة، التي لم تكن راغبةً قط بالاضطلاع مباشرةً بتسيير هذه الشؤون النائية المحفوفة بالمخاطر، التي كان لمجرياتها المتقلبة أنْ تتسبب في نتائج سياسيّةٍ خطيرة. كما كانت تخشى من أن تصبح تكلفة الدفاع عن هذه الممتلكات الهنديّة أعلى من الدخول التي تجلبها. وعليه قام البرلمان بصفةٍ دوريةٍ في تجديد صكّ احتكار التجارة في آسيا لشركة الهند الشرقيّة عندما يحين تجديده، فارضًا عليها في عام (١٧٦٧) إتاوةً سنويةً هامة، كمشاركة في الأرباح[١].

ولكن كانت خطورة الشائعات وجسامة السجالات التي أثارتها تجاوزات التجار الأوروبيين الخواص في البنغال، والتنديد بحروب الاحتلال المنسوبة إلى مجرد الجشع، والقضايا التي كان على مسؤولي الشركة الكبار مواجهتها لدى عودتهم، تقتضي على الأقل أنْ تتخذ الحكومة البريطانية إجراءات للرقابة السياسيّة الدائمة على الشؤون الهندية. ويشير بوشباداس إلى أنّ تلك الأسباب كانت إحدى غايات (القانون التنظيمي/١٧٧٣)، كأول تأكيدٍ لحقّ رقابة البرلمان على

١. المصدر نفسه، ص٢٧٧-٢٨٥.

نشاطات الشركة، ثم (قانون الهند/١٧٨٤)، الذي فرض عليها وصايةً حكوميّةً فعليّة.

ويسلّط بوشباداس الضوء على الطابع الاحتكاري لهذا النظام، حتى أوقفت بالفعل كلّ نشاطٍ تجاريّ لها مع شبه القارة الهنديّة لدى تجديد صكّها الثاني في عام (١٨٣٣). وكيف تم تحويلها إلى مجرد جهاز لإدارة الهند، يعمل لحساب التاج البريطاني، ثم ألغيت في عام (١٨٥٨). لمّا كان الهدف الأساس لشركة الهند الشرقيّة تحقيق الأرباح، لذلك صُمّم نظامها الإداري لخدمة هذه الغاية. إذ استغلت الموارد الطبيعيّة للهند بنحوٍ مكثّفٍ، وفرضت ضرائب باهظة على السكّان المحلّيين لتمويل أنشطة الشركة. ويوضّح الكاتب كيف أعطى البريطانيون الأولوية على نحوٍ متزايدٍ لجباية الضرائب، منذ أن آلت إليهم وظائف الحكم عام (١٧٦٥)، وكيفيّة استغلال الموارد الطبيعيّة الهنديّة لصالح الاقتصاد البريطاني.

وكان يُقوّم عمل كلّ إداري طبقًا لهذا المعيار، الذي كان الحاكم العام كورنواليس يعرفه في عام ١٧٩٣، على النحو الآتي: «جعل امتلاك البلد أكثر ما يمكن نفعًا لشركة الهند الشرقيّة، وللأمة البريطانية»[١]. لقد كانت شركة الهند الشرقية حريصةً على استغلال موارد الهند إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ لتحقيق أقصى قدرٍ من الربح. فكانت سياسة الشركة قائمةً على مبدأ (الاستعمار الاقتصادي) حيث كانت تستهدف تحويل الهند إلى سوقٍ كبيرٍ لمنتجاتها البريطانيّة ومصدرٍ للموادّ الخام.

ويركز بوشباداس على الآثار المدمرة لفقدان الهند استقلالها، وكيف أدّى ذلك إلى تآكل الهويّة الوطنيّة وتقويض الاقتصاد الهندي. يوضّح الكتاب كيف عملت السياسات البريطانيّة على تعميق الانقسامات الطائفيّة والعرقيّة في الهند، ممّا زرع بذور الصراعات المستقبليّة. ويشير بوشباداس إلى ظهور تيارٍ ليبراليّ في بريطانيا دعا إلى إجراء إصلاحاتٍ في الهند، وتحسين أوضاع السكّان. ومع ذلك، يرى أنّ هذه الإصلاحات كانت محدودةً، ولم تستهدف معالجة الجذور العميقة للمشكلة. ويسلّط الضوء على محاولات البريطانيين فرض ثقافتهم وقيمهم على الهند، وكيف أدّى ذلك إلى تدمير العديد من التقاليد والعادات الهنديّة[٢].

وفي ملحق: المقاومات في الهند المستعمَرة للاستعمار، والثورة الكبرى، يذكر بوشباداس العديد من الثورات والمقاومات الشعبيّة التي قام بها الهنود ضدّ الاستعمار البريطاني، التي بدأت منذ الأيام الأولى للاحتلال في عام (١٧٥٧)، وحتّى الثورة الكبرى (١٨٥٧-١٨٥٨). إذ يخصّص

١. المصدر نفسه، ص٢٨٧.

٢. المصدر نفسه، ص٢٨٧-٢٩٢.

بوشباداس جزءًا مهمًّا من بحثه لتحليل التمرّدات الهنديّة الكبرى التي اندلعت ضدّ الاستعمار البريطاني، ويشرح الأسباب التي أدّت إليها، وعواقبها حتى الاستقلال[١].

لذلك يعدّ بحث جاك بوشباداس مرجعًا قيمًا لفهمٍ عميقٍ لتاريخ الهند الاستعماري؛ لتحليله الشامل للعمليات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي شكلت هذا العصر، حيث يقدّم بوشباداس صورةً واضحةً عن التحدّيات التي واجهها الشعب الهندي، وكيف تمكّن من الصمود والمقاومة. ومن المهم الإشارة إلى أنّ هناك وجهات نظرٍ أخرى حول تاريخ الهند الاستعماري، وقد يختلف بعض المؤرّخين مع بعض التحليلات التي قدّمها بوشباداس. إذ يجب فهم الأحداث التاريخيّة في سياقها الزمني والثقافي، وعدم الاكتفاء بتحليلٍ معزول؛ لأنّ النضال استمر من أجل الاستقلال في الهند حتى منتصف القرن العشرين، وقد أدّت العديد من الشخصيّات والتحرّكات دورًا حاسمًا في تحقيق هذا الهدف[٢].

كما يقدّم الكتاب تحليلاً نقديًّا للاستعمار الفرنسي في الهند الصينيّة، وكيف أثّر على حياة الشعوب المحلّية واقتصاد المنطقة. حيث يسلّط الضوء على العنف الذي مارسه المستعمِرون الفرنسيّون ضدّ السكّان المحلّيين، بما في ذلك القمع الوحشي للمقاومة الشعبيّة، وكيف استغلّ الفرنسيّون موارد الهند الشرقيّة بنحوٍ منهجيّ، ممّا أدّى إلى تدهور مستوى المعيشة للسكّان. ويسلّط الضوء على الاستغلال الاقتصادي الفرنسي لموارد الهند الصينيّة بشكلٍ مكثّف، وكيف ركّزت على زراعة المحاصيل التجاريّة مثل الأرز والقهوة والكائوتشوك على حساب الزراعة الغذائيّة، ممّا أدى إلى تفاقم الفقر والجوع بين السكّان المحليين. وكيف مارست فرنسا سياسةً استبداديّةً وقمعيّةً ضدّ الشعوب المحلّية، حيث تم قمع الحركات الوطنيّة والمطالبات بالاستقلال، حيث نشأت العديد من الحركات الوطنيّة في الهند الصينيّة، التي قاومت الاستعمار الفرنسي بوسائل مختلفة، مثل المقاومة المسلّحة والاحتجاجات السلمية، حتى قيام الحزب الشيوعي الفيتنامي بدورٍ هامٍ في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وقاد الثورة التي أدّت إلى استقلال فيتنام، خلال قرنٍ من النضال الوطني في فيتنام.

وقسّم المؤرّخ الفرنسي آلان روسيو مراحل المقاومة الفيتناميّة للاستعمار الفرنسي إلى ثلاثة أصناف: المقاومة الأولى التقليديّة الملكيّة، والمقاومة الثانية: الحداثيّة الوطنيّة، والمقاومة الثالثة:

١. المصدر نفسه، ص٣١١-٣١٤.

٢. المصدر نفسه، ص٣٥١-٣٦٢.

الراديكاليّة الشيوعيّة التي انتهت بهزيمة فرنسا في معركة ديان بيانفو عام ١٩٥٤ [١]. حيث يُظهر الكتاب بأنّ الاستعمار الفرنسي للهند الصينيّة كان تجربةً مأساويةً للشعوب المحلية، حيث أدّى إلى استغلال الموارد، وقمع الحريات، وتأخّر التنمية. ومع ذلك، فإنّ مقاومة الشعوب المحلّية للاستعمار، والانتصارات التي حقّقتها، كانت بمنزلة مصدر إلهامٍ للشعوب المستعمَرة في جميع أنحاء العالم. وفي سياق الموضوع يسلّط الكتاب الأسود للاستعمار الضوء على فيلم (إلى جانب الاغتصاب والجلادين: الزوّار) لإيليا كازان، بوصفه من الأفلام النادرة التي تسوّغ التجاوزات والفظاعات التي ارتكبت في فيتنام[٢].

ولما كانت منطقة القوقاز تعدّ واحدةً من أبرز المناطق التي شهدت صراعاتٍ استعماريّةً طويلة الأمد، وكان للروس دورٌ بارزٌ في تشكيل مصير هذه المنطقة، يقدّم كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) تحليلاً معمقًا للتجربة الروسيّة في القوقاز، وكيف أثرت على الهويّات الثقافيّة والسياسيّة للشعوب التي سكنتها. ومقاومة الشعوب القوقازية للاستعمار الروسي بكلّ الوسائل المتاحة، حيث شهدت المنطقة العديد من الثورات والحركات المسلحة، ومن أبرز هذه الحركات، مقاومة الشركس والشيشان الاستعمار الروسي لعدة قرون، ولكنّهم تعرضوا أيضًا للقمع والتهجير، خلال مراحل تطور الدولة الروسية منذ نشأتها حتى ما بعد انهيار الاتّحاد السوفييتي عام ١٩٩١ [٣].

وفي هذا الإطار، يخصّص الكتاب جزءًا مهمًّا لتحليل التجربة الاستعماريّة اليابانيّة، التي غالبًا ما تُظلل بظلال الاستعمار الغربي، تحليلاً معمّقًا؛ وكيف اختلف عن الاستعمار الغربي التقليدي، وكيف أثّر على الشعوب المستعمرة، للباحث والمؤرّخ الفرنسي بيير فرانسوا سويري، المتخصّص في تاريخ اليابان، ويسلّط الضوء على الجوانب المظلمة للإمبرياليّة اليابانية. فكان الاستعمار الياباني ظاهرةً معقدةً ومتعدّدة الأوجه، حملت في طياتها الكثير من العنف والقمع والاستغلال. على الرغم من أنّ الإمبراطورية اليابانية انهارت بعد الحرب العالميّة الثانية، إلّا أنّ آثار الاستعمار ما تزال موجودةً حتى اليوم في العديد من دول آسيا[٤].

ثم ينتقل الكتاب من الصفحة (٤٤٥) إلى قارة إفريقيا لتسليط الضوء على بعض التجارب

١. المصدر نفسه، ص٣٨٧-٤٠٠

٢. المصدر نفسه، ص٤٠١-٤٠٤.

٣. المصدر نفسه، ص٤٠٥-٤١٩

٤. المصدر نفسه، ص٤١٩-٤٤٣.

الاستعماريّة في القارة الإفريقيّة. على سبيل المثال، أفريقيا الوسطى التي تعدّ واحدةً من المناطق التي شهدت وحشية الاستعمار، الكونغو البلجيكي بشكلٍ خاص، حيث تعرّضت شعوبها لمجازر وحشية وتشريد واسع النطاق من القوى الاستعماريّة الأوروبية الثلاث: البرتغاليين والفرنسيين والبلجيكيين (الليوبولديين). إذ سعى المستعمِرون إلى الاستيلاء على أراضي شعوب أفريقيّة الوسطى لزراعة المحاصيل التجاريّة، ممّا تسبّب في نزوح السكّان الأصليين وتدمير بيئتهم واستعمل المستعمِرون القوة العسكريّة لإجبار السكّان المحليين على العمل في مزارعهم ومناجمهم في ظروفٍ قاسية، حيث قمعت القوى الاستعماريّة بشراسة أيّ مقاومةٍ من قبل الشعوب الأفريقيّة، ممّا أدّى إلى وقوع مجازر وحشيّة، ولا سيّما في الكونغو البلجيكي، حيث بلغت طرق الاستعمار درجةً من الوحشيّة جعلت منها نموذجًا في تاريخ استعمار القرنين التاسع عشر والعشرين[١]. يقدّم كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) تحليلاً معمّقًا لهذه الفترة المظلمة من تاريخ القارة، وكيف أن القوى الاستعماريّة، ولا سيما القوى الأوروبيّة، استغلّت موارد القارّة وثرواتها البشريّة بلا رحمة.

كما يُقدم كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) رؤيةً شاملةً لتاريخ الاستعمار وتأثيراته على الشعوب المستعمَرة، بما في ذلك الاستعمار العربي في زنجبار. فقد وصلت ذروة النفوذ العربي في زنجبار في القرن التاسع عشر، عندما اتّخذ السلطان العماني سعيد بن سلطان زنجبار عاصمة لدولته في عام ١٨٤٠. كانت تجارة الرقيق جزءًا أساسيًّا من الاقتصاد في زنجبار خلال فترة الاستعمار العربي، إذ اتبعت السلطنة أسلوب إنتاج عبودي حقيقي يتحكّم في إنتاج القرنفل والقطن وقصب السكر وشتّى المحاصيل الزراعية. فازداد عدد العبيد في الجزيرة من (١٢٠٠٠) في عام ١٨٩١ إلى أكثر من مئة ألف في ثلاثينيّات القرن ذاته. وكان من (تيبو تيب) واسمه حامد بن محمد بن جمعة بن رجاد المرجبي، عربي خليط كان يتكلّم العربيّة والسواحيليّة، كان الأرفع مقامًا والأكثر شهرةً واحترامًا من تجّار الرقيق لدى الأوروبيين.

كما يعطي الكتاب لمحةً عن اقتصاد الغراس العبودي هذا، الذي نشأ من تجاه العبيد الداخلية، التي عرفت توسعها الأقصى في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وكان يستمر بفضلها. أسهم الاستعمار العربي في تطوير الاقتصاد في زنجبار، وخاصة في مجال التجارة. حيث تم نقل آلاف الأفارقة من داخل القارة إلى زنجبار، حيث تم بيعهم كعبيدٍ في الأسواق المحلية أو تم تصديرهم إلى مناطق أخرى. كما تسبّبت تجارة الرقيق في معاناةٍ إنسانيّةٍ هائلة، وأثّرت سلبًا على التركيبة

١. إيلكيا موكولو، إفريقية الوسطى: زمن المجازر، المصدر نفسه، ص٤٤٧-٤٦٤.

السكانيّة والاجتماعيّة في المنطقة. إلّا أنّ هذا التطور كان يعتمد بشكلٍ كبيرٍ على تجارة الرقيق، ممّا أدّى إلى استغلال السكّان الأفارقة. بشكلٍ عام، يركز الكتاب على الآثار السلبية للاستعمار العربي في زنجبار، وخاصّة فيما يتعلّق بتجارة الرقيق والاستغلال الاقتصادي والتهميش الاجتماعي والسياسي للسكّان الأفارقة[١].

إليكا مبو كولو، المؤرّخ والكاتب الكونغولي، يلقي الضوء في كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) على ممارسات التمييز العنصري، التي مورست خلال فترة الاستعمار في أفريقيا، وخاصّة في جنوب أفريقيا. يرى مبو كولو أنّ الاستعمار لم يكن مجرد استغلالٍ اقتصادي، بل كان يقوم على أساسٍ عنصريّ متجذّر؛ إذ كان يُنظر إلى الأفارقة على أنّهم أدنى مرتبةً من الأوروبيين. هذا الاعتقاد العنصري كان يبرر القمع الوحشي والاستغلال الشديد الذي تعرّض له الأفارقة. يتحدّث الكتاب عن ممارسات التمييز العنصري اليوميّة التي كانت منتشرةً في المستعمرات، مثل الفصل العنصري في الأماكن العامة، والابارتيد، والتمييز في الحصول على التعليم والرعاية الصحية. يؤكّد مبو كولو أنّ العمل القسري كان جزءًا أساسيًا من النظام الاستعماري، حيث كان الأفارقة يُجبرون على العمل في ظروفٍ قاسية، وغالبًا ما كانوا يتعرّضون للعنف الجسدي. وكانت القوى الاستعماريّة تستخدم العنف بنحوٍ ممنهج لقمع أيّ مقاومةٍ من قبل السكّان المحليين. يؤكّد مبو كولو أنّ آثار التمييز العنصري ما تزال مستمرةً حتى اليوم، وأنّ المجتمعات الأفريقيّة ما تزال تعاني من آثار الاستعمار. ويرى أنّ التميز العنصري ما يزال موجود بشكلٍ ملحوظٍ في الدول التي كانت تستعمر إفريقيا. باختصار، يقدم إليكا مبو كولو رؤيةً نقديّةً للاستعمار، ويركّز على الجوانب العنصريّة والإنسانيّة لهذه الفترة المظلمة من تاريخ أفريقيا[٢].

في حين يتناول شارل فان أونسيلين في ملحق رقم (١) من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) موضوع «أبوية وعنف في مزارع الترانسفال (١٩٠٠-١٩٥٠)»، ويقدّم تحليلاً مفصلاً لممارسات التمييز العنصري والعنف التي مورست في مزارع الترانسفال بجنوب أفريقيا خلال تلك الفترة. ويشرح كيف أنّ النظام في مزارع الترانسفال كان يقوم على أساس نظامٍ أبويّ وعنصريّ متداخل، حيث كان المزارعون البيض يمارسون سلطةً مطلقةً على العمال الأفارقة. كانت هذه السلطة تُبرر عبر الاعتقاد بتفوّق العرق الأبيض، وعدّ العمّال الأفارقة قاصرين (أطفالاً) يحتاجون إلى رعاية المزارعين البيض (الآباء). يصف فان أونسيلين كيف كان العمّال الأفارقة يُجبرون على العمل

١. كاثرين كوكري فيدوروفيتش، الاستعمار العربي في زنجبار، المصدر نفسه، ص٤٦٥- ٤٧٩.

٢. إليكيا مبو كولو، ممارسات التمييز العنصري، المصدر نفسه، ص٤٨٣-٤٩٢.

في ظروفٍ قاسية، وغالبًا ما كانوا يتعرّضون للعنف الجسدي والنفسي، كالجلد (Sjambok)، وفي مقابل كلّ عمل عنفٍ يرتكب ضدّ المزارعين، كان لا بد من التعويض بهدايا وتنازلات توخيًا لتأمين استقرار النظام على المدى البعيد. باختصار، كانت هذه التعويضات والتنازلات تُستعمل كآليةٍ للسيطرة على العمّال الأفارقة، وللحفاظ على استقرار النظام العنصري في مزارع الترانسفال، ولتجنب تصاعد الغضب والتمرد.

وفقًا للمؤلّف مارك فيرو في كتابه (الاستعمار: الكتاب الأسود)، فإنّ غزو الجزائر لم يكن مجرد رد فعلٍ على أعمال القرصنة وتجارة الرقيق، بل كان جزءًا من نزعةٍ استعماريةٍ ذات أهدافٍ أوسع. ويرى فيرو أنّ الغزو يندرج ضمن النموذج الثاني للاستعمار، الذي يسعى إلى مهمة تحضيرية، أي فرض الحضارة والقيم الغربيّة على الشعوب الأخرى. وأشار إلى أنّ نابليون بونابرت كان يرى في ممارسات «البربر» (سكان شمال إفريقيا) عارًا على الغرب، رغم أنّه نفسه أعاد العبودية في سان دومينغو. وكانت هناك فكرةٌ سائدةٌ قبل الثورة الفرنسيّة بأنّ الإمبراطوريّة العثمانية (رجل مريض) يجب تقسيم تركتها، وكان غزو الجزائر أو مصر مطروحًا كأحد الاحتمالات. لذلك بعد فشل حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨، اتّجهت الأنظار إلى الجزائر كموقعٍ استراتيجي للسيطرة على موانئ البحر المتوسط. وإضافةً إلى الدوافع الاستعماريّة، كانت هناك أسبابٌ أخرى للغزو، مثل رغبة فرنسا في القضاء على القرصنة في البحر المتوسّط، وتأمين مصالحها التجاريّة. فاستغلّت فرنسا حادثة المروحة كذريعةٍ لبدء الغزو. باختصار، يوضّح فيرو أنّ غزو الجزائر كان جزءًا من مشروعٍ استعماري أوسع، وليس مجرد رد فعلٍ على أحداث عارضة[١].

وفي كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود)، يتم تناول موضوع تجنيد المستعمَرين في خدمة الوطن الأم، ويشمل ذلك عدّة جوانب تتعلّق بتوظيف السكّان الأصليين في الجيوش الاستعماريّة، ودورهم في الحروب التي خاضتها القوى الاستعماريّة. باختصار، يوضّح الكتاب كيف تم استغلال المستعمَرين في خدمة أهداف القوى الاستعماريّة، وكيف ترك ذلك آثارًا سلبيةً على المستعمَرات[٢].

كما يتناول مارك فيرو في كتابه (الاستعمار: الكتاب الأسود) جوانب مختلفةً من الوضع في الجزائر عشية التمرّد، مبرزًا تأثير النزعة الاستعماريّة وميراث نظام فيشي، بالإضافة إلى ممارساتٍ سياسيّة مثيرةٍ للجدل. حيث يشير فيرو إلى استمرار النزعة الاستعماريّة في الجزائر، التي تمثّلت في سيطرة المستوطنين الأوروبيين على السلطة والاقتصاد، وتهميش السكّان الأصليين. كما يصف

١. مارك فيرو، غزو الجزائر، المصدر نفسه، ص٥٠٥- ٥١٥.

٢. المصدر نفسه، ص٥١٧-٥٢٠.

كيف أنّ المستوطنين كانوا ينظرون إلى الجزائر كجزءٍ لا يتجزّأ من فرنسا، ويرفضون أي فكرةٍ عن الاستقلال أو الحكم الذاتي. ويشرح كيف أنّ النزعة الاستعماريّة كانت تتجلّى في جميع أوجه الحياة في الجزائر، من السياسة إلى الاقتصاد إلى الثقافة. كما يؤكّد فيرو على تأثير نظام فيشي المتعاون مع ألمانيا النازية على الوضع في الجزائر. ويشرح كيف أنّ نظام فيشي عزّز من سلطة المستوطنين الأوروبيين، وقمع الحركات الوطنيّة الجزائريّة. ويشير إلى أنّ ميراث فيشي أسهم في تأجيج المشاعر المعادية لفرنسا بين السكّان الأصليين.

وينتقد فيرو الممارسات الانتخابية في الجزائر، التي كانت تهدف إلى ضمان فوز المستوطنين الأوروبيين. ويشرح كيف أنّ السلطات الاستعماريّة كانت تتلاعب بالانتخابات، وتزوّر النتائج، وتستخدم العنف لقمع المعارضة. ويشير إلى أنّ هذه الممارسات الانتخابيّة كانت تزيد من استياء السكّان الأصليين، وتدفعهم نحو التمرد. بشكلٍ عام، يوضّح فيرو كيف أنّ النزعة الاستعماريّة وميراث فيشي والممارسات السياسيّة المثيرة للجدل أسهمت في تهيئة الظروف لاندلاع التمرّد في الجزائر[١].

يتناول جزءًا من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) للكاتب إيف بينوت (Yves Benot) مرحلةً مهمّةً من تاريخ الاستعمار الفرنسي في إفريقيا، وهي مرحلة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، والتي شهدت بداية تحركات نحو إنهاء الاستعمار. فبعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٤٥، بدت الإمبراطوريّة الاستعماريّة الفرنسيّة في إفريقيا سليمةً إلى حدٍّ كبير، باستثناء بعض المناطق مثل الهند الصينيّة وسوريا ولبنان. وكان هناك اعتقادٌ سائدٌ في فرنسا، وأوروبا بشكلٍ عام، بضرورة إجراء إصلاحاتٍ في النظام الاستعماري، ولكن دون المساس بجوهره. فتم، على سبيل المثال، استبدال مسمّى (وزارة المستعمَرات) بـ (وزارة فرنسا فيما وراء البحار)، والإمبراطوريّة بـ(الاتحاد الفرنسي)، في محاولةٍ لإضفاء مظهرٍ جديدٍ على النظام الاستعماري. لكن هذه التغييرات كانت شكليةً إلى حدٍّ كبير، ولم تعكس تغييرًا حقيقيًّا في السياسات الاستعماريّة. فكانت فكرة الاستقلال مرفوضةً تمامًا من قبل فرنسا، ولم يكن هناك أيّ استعدادٍ للتفاوض بشأنها، إذ كانت فرنسا متمسكةً بمستعمراتها، وتعدّها جزءًا لا يتجزّأ من أراضيها. ولكن رغم هذا كلّه كانت هناك حركات تحرّرٍ في المستعمَرات، وكانت الحرب العالميّة الثانية قد أسهمت في إذكاء الوعي الوطني لدى شعوب المستعمَرات، ممّا أدّى إلى تصاعد المطالبة بالاستقلال. باختصار يؤكّد الكاتب أنّ فرنسا كانت ترفض فكرة الاستقلال تمامًا، وأنّ الإصلاحات التي قامت بها كانت شكلية، ولم تغيّر من طبيعة النظام الاستعماري. لكن

١. المصدر نفسه، ص٥٢١- ٥٣٠.

في الوقت نفسه بدأت تظهر هناك بذور المقاومة والتحرر[١]. ويشير الكاتب إيف بينوت الى التكلفة البشريّة لحرب الجزائر، التي لا تشكّل موضوعًا للنزاع تتعلّق بالمستعمرين:

١. خسائر الجيش الفرنسي: (١٥٥٨٠) قتيلاً حتى (١٩/٠٣/١٩٦٢)، و(٩٠٣١) قتيلاً عرضًا في الفترة ذاتها، و(٢٠٥٦) قتيلاً في الفرقة الأجنبية (١٠٠٠) مفقود تقريبًا، و(١٢٧٧) قتيلاً على إثر جروح أصيبوا بها. المجموع: (٢٨٩٤٤). ويقرّ الجيش بأنّه كان هناك ما يقارب من (٥٠٠) فار من الخدمة، وهو رقم يعدّه بعضهم ضئيلاً جدًّا. ولم تلقَ النسبة العالية للحوادث المميتة تفسيرًا مقنعًا.

٢. القتلى المدنيون الأوربيون، حتى (١٩/٠٣/١٩٦٢)، كانوا (٢٧٨٨) قتيلاً، إضافة إلى (٨٥٧) مفقودًا. وفي حصيلة منظمة الجيش السري (٢٣٦٠) اغتيالاً، و(٥٤١٩) جريحًا، أكثريتهم الساحقة جزائريون.

٣. إلّا أنّه من الصعوبة بمكان تقدير الخسائر الجزائريّة بالأرقام. لكن علينا في البداية ذكر (٨٠٠٠) قرية أحرقت ودمرت، ومليون هكتار من الغابات أحرق أيضًا. ويقرّ الجيش الفرنسي بأنّه قتل (١٤١٠٠٠) مقاتل من الجبهة، ويؤكد أنّ (٦٩٠٠٠) من المسلمين صفتهم جبهة التحرير الوطني. لكن هناك معلومة أكثر دقة هي أنّ (٢،١٣٧) مليون جزائري وجزائرية قد رحلوا إلى معسكرات تسمّى معسكرات التجميع، من (٨) ملايين من الجزائريين في عام (١٩٥٤).

أمّا عدد القتلى بين السكّان الجزائريين الذين سقطوا في المعركة، وأسرى الحرب الذين أُردوا قتلى، والمشتبه بهم أو من القرويين البسطاء في حمى القتال، فيتردّد المؤرّخون بين (٢٠٠٠٠٠)، كحد أدنى، و(٥٠٠٠٠٠)، وهو الأكثر ترجيحًا. وجدير بالذكر أنّ الوزارة الجزائريّة لقدماء المجاهدين أحصت (٣٦٠٠٠٠) مجاهد ومجاهدة في حرب التحرير توطئة لمنح بطاقة المجاهد للباقين على قيد الحياة منهم ولأصحاب الحقوق من ذوي الشهداء[٢].

في حين تتناول الكاتبة كاثرين كوكري- فيدروفيتش التطور السكّاني في أفريقيا المستعمرة، وتشرح كيف أثر الاستعمار بشكلٍ كبيرٍ على التركيبة السكانيّة للقارّة. إذ تشير الكاتبة إلى أنّ الدراسات التاريخيّة حول السكّان ذات أهميةٍ بالغةٍ في فهم تأثير الاستعمار على أفريقيا. وتوضّح أنّ الاستعمار كان له تأثيراتٌ متناقضةٌ على التاريخ السكّاني. أمّا المراحل الثلاث للتأثير السكّاني فهي: المرحلة الأولى: اقتصاد النهب، وتميّزت هذه المرحلة بالنهب والاستغلال، ممّا أدّى إلى نقصٍ حادٍّ في عدد

١. المصدر نفسه، ص٥٣٥-٥٧٣.

٢. المصدر نفسه، ص٥٧٣.

السكّان في كلّ من شمال أفريقيا وأفريقيا جنوب الصحراء. والمرحلة الثانية: مرحلة التصحيح، التي شهدت استقرارًا في عدد السكّان، بل وبداية نمو بطيء. أمّا المرحلة الثالثة: النمو السكاني المفاجئ، وفي هذه المرحلة، بدأت السلطات الاستعماريّة بالاهتمام بصحة السكّان، ممّا أدى إلى نموٍ سكّاني مفاجئ ومستمر. كما توضّح الكاتبة أنّ الاستعمار أدّى إلى تغييراتٍ جذريةٍ في التركيبة السكانيّة لأفريقيا، سواء من خلال النقص الحادّ في السكان في المراحل الأولى، أم من خلال النمو السكّاني السريع في المراحل اللاحقة. وتشير إلى أنّ هذه التغيرات السكانيّة كان لها تأثيراتٌ عميقةٌ على المجتمعات الأفريقيّة. وتقدّم الكاتبة تحليلاً مفصّلاً للتطوّر السكّاني في أفريقيا المستعمرة، وتوضّح كيف أثر الاستعمار بشكلٍ كبيرٍ على التركيبة السكانيّة للقارّة. وتشرح المراحل الثلاث التي مرّ بها التطوّر السكّاني في إفريقيا المستعمرة[١].

فيما يتناول جزء (مصير المرأة) من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود)، تأثير الاستعمار على وضع المرأة في المستعمرات، وتحديدًا في أفريقيا وجزر الأنتيل والجزائر والهند وإندونيسيا. حيث يشير الكتاب إلى أنّ تأثير الاستعمار على المرأة كان متنوعًّا ومختلفًا باختلاف الزمان والمكان، وكذلك باختلاف المجتمعات المستعمرة. وتوضّح أنّ وضع المرأة كان يختلف بشكلٍ كبيرٍ بين المجتمعات المختلفة، وأنّ الاستعمار أدّى إلى تغييراتٍ جذريةٍّ في هذا الوضع.

وتذكر الكاتبة آرليت غوتييه بعض الرؤى النسائيّة التي تعبّر عن تأثير الاستعمار، مثل رؤية باندينا راما باي التي أشارت في عام ١٨٨٦ إلى أنّه «لا أمل للنساء في الهند، سواء تحت الحكم البريطاني أم الحكم الهندي». وأيضًا رأي فونميلايو رانسوم - كوتي التي تتهم الاستعمار بجعل «النساء عبيدًا»[٢]. كما تشير الكاتبة إلى أنّ الاستعمار الأول، الذي بدأ مع وصول كريستوفر كولومبوس إلى جزر الأنتيل، تميز بالاجتياح والتدمير للمجتمعات والسكّان. وتوضّح أنّ هذا الاجتياح أدّى إلى تغييراتٍ جذريّةٍ في العلاقات بين الجنسين، خاصّة مع استيراد الأفارقة كعبيد.

توضّح الكاتبة أنّ تركيب الجنسين نفسه، أي ما كان منتظرًا تبعًا للجنس، والعلاقات بين الجنسين هو ما أصابه الاضطراب نتيجة لأشكال الاستعمار المختلفة. وأيضًا تشير إلى أنّ الاستعمار أدّى إلى تغييراتٍ في الأعراف وأنماط الإنتاج والنظم السياسيّة، ممّا أثر على وضع المرأة. وترى الكاتبة أنّ الدين والمخيلة الذكورية للحريم الاستعماري والإقصاء السياسي للنساء كانت نقاطًا مشتركةً بين فترات الاستعمار المختلفة. وتذكر أمثلةً من مجتمعاتٍ مختلفة، مثل مجتمع الإيروكوا، الذي كان

١. المصدر نفسه، ص٥٧٥- ٥٨٤.

٢. المصدر نفسه، ص٥٨٧-٥٨٨.

يتميز بمساواةٍ نسبيةٍ بين الجنسين، ومجتمع سيام، الذي كان يتميز بزواج الإكراه. وأيضًا تذكر فيلم (أنا والملك) الذي ظهرت فيه أمَة ومالكة للعبيد، ممّا يوضّح تنوع أوضاع النساء في المستعمرات. وتقدّم الكاتبة تحليلاً مفصّلاً لتأثير الاستعمار على وضع المرأة في المستعمرات، وتوضح كيف أدّى الاستعمار إلى تغييراتٍ جذريّةٍ في هذا الوضع. وتشرح كيف أنّ عواقب الاستعمار على النساء تتنوع بحسب وضعهن الأصلي[١].

يقدّم مارسيل ميرل في فصل معاداة الاستعمار من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) تحليلاً شاملاً لمعاداة الاستعمار، مبينًا أنّها لم تكن مجرد ردّ فعلٍ عابر، بل حركة فكريّة وسياسيّة متجذرة. يرى ميرل أنّ الاستعمار لم يكن مجرد مغامرة عشوائية، بل مشروعًا منهجيًا مدعومًا من قبل الدول الأوروبية، وهذا المشروع الاستعماري استلزم تبريرًا أيديولوجيًا، ممّا أدّى إلى ظهور (الإيديولوجيّة الاستعماريّة). وكردّ فعلٍ طبيعي، نشأت (الإيديولوجيّة المضادّة)، أي معاداة الاستعمار. يميز ميرل الاستعمار الأوروبي عن غيره، مشيرًا إلى أنّ الأوروبيين كانوا الوحيدين الذين أثاروا حركة احتجاجٍ داخلية ضدّ الاستعمار. وإنّ معاداة الاستعمار كانت في بداياتها تيارًا ضعيفًا داخل الدول المستعمِرة، حيث كان الاستعمار يُنظر إليه كأمر واقع. ولم تظهر معاداة الاستعمار بشكلٍ نقي، بل كانت متداخلةً مع رؤى اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ أخرى، وأحيانًا كانت تتضمن تنازلاتٍ للاستعمار. ولم تكن معاداة الاستعمار مذهبًا واحدًا، بل مجموعة مقترحات متنوعة ومتناقضة أحيانًا، تتراوح بين الإصلاح المعتدل والمعارضة الجذريّة. ويوضّح ميرل أنّ الاستعمار انهار بسبب تناقضاته الداخليّة، وليس فقط بسبب قوة معارضيه[٢].

يستعرض ميرل أشكال المعارضة على نحوٍ موجزٍ بالآتي:

المعارضة الدينيّة: التي كانت من أوائل أشكال معاداة الاستعمار التي ظهرت. يوضّح ميرل أنّ المستعمرين كانوا يتذرعون بحقّ التنصير كأحد مبررات غزوهم، ممّا جعل الكنيسة طرفًا أساسيًّا في المعادلة الاستعماريّة. يشير إلى أنّ رجال الدين كانوا موجودين في المستعمرات مبكرًا عن طريق الإرساليات، ممّا جعلهم شهودًا على ممارسات المستعمرين. كما يذكر أنّ المعارضة الدينيّة للاستعمار ظهرت مبكرًا، وتحديدًا منذ منتصف القرن السادس عشر، على يد رجال الدين الإسبان الذين شهدوا فظائع الغزو، وأنّ الأسقف لاس كاساس كان من أبرز المدافعين عن حقوق السكان الأصليين، وقدّم العديد من التقارير إلى ملك إسبانيا حول ممارسات المستعمرين. باختصار،

١. المصدر نفسه، ص٥٨٥- ٦٢٠.

٢. المصدر نفسه، ص٦٢٣-٦٢٤.

يوضح ميرل أنّ المعارضة الدينيّة للاستعمار كانت حركةً مبكرةً ومهمّة، أسهمت في فضح ممارسات المستعمرين والدفاع عن حقوق السكّان الأصليين[١].

كما يتناول مارسيل ميرل في هذا الجزء من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) تطور معاداة الاستعمار المدنيّة، ويصف قرن الأنوار بأنّه (العصر الذهبي لمعاداة الاستعمار). ويشير ميرل إلى أنّ معاداة الاستعمار المدنيّة كانت أكثر تنوعًّا وتطوّرًا من المعارضة الدينيّة، حيث شهدت مراحل مختلفة من الصعود والهبوط. ويوضح أنّ قرن الأنوار كان ذروة هذه الحركة، قبل أن تتراجع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم تعود للظهور في القرن العشرين؛ إذ يصف ميرل القرن الثامن عشر بأنّه (العصر الذهبي لمعاداة الاستعمار)؛ لأنّ هذا القرن شهد ظهور جميع مكونات معاداة الاستعمار، من التعاطف مع الضحايا إلى الإدانة الجذرية للنظام الاستعماري. ويشير إلى أنّ هذا القرن شهد أيضًا تنوعًا كبيرًا في الدوافع التي ألهمت معاداة الاستعمار، من القيم الإنسانيّة إلى المصالح النفعية.

ثم يقسّم ميرل وجهات النظر في هذا القرن إلى قسمين: وجهة نظر الفلاسفة، ووجهة نظر النفعيين. فالفلاسفة: هم مجموعة من المفكّرين الذين استندوا إلى مبادئ الأخلاق وحقوق الإنسان في انتقاد الاستعمار. أمّا النفعيون: هم مجموعة من المفكّرين الذين استندوا إلى المصالح الاقتصاديّة والسياسيّة في انتقاد الاستعمار. باختصار، يوضح ميرل أنّ قرن الأنوار كان فترة حاسمة في تطور معاداة الاستعمار، حيث شهد ظهور أفكار ودوافع متنوعة أسهمت في تشكيل هذه الحركة[٢].
ثم يتناول مارسيل ميرل في هذا الجزء من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) فترة الكسوف الثوري التي تلت عصر الأنوار، ويصف فيها تراجع الاهتمام بمعاداة الاستعمار خلال الثورة الفرنسية وما بعدها، ثم ينتقل للحديث عن القرن التاسع عشر الذي شهد ظهور (معاداة استعمار معتدلة). حيث يشير إلى أنّ الثورة الفرنسيّة، رغم مبادئها الإنسانيّة، لم تشهد تغييرًا جذريًا في السياسة الاستعماريّة. كما يوضح أنّ جمعية (أصدقاء السود)، التي تأسست في عام ١٧٨٩، كانت تعارض تجارة الرقيق، ولكنّها لم تدعم تمرد العبيد في هاييتي. ويشير إلى أنّ روبسبير، رغم مواقفه المنسوبة إليه، لم يكن من أشدّ المعارضين للاستعمار، وأنّ تصريحاته كانت غالبًا موجّهةً لسياقاتٍ سياسيّةٍ محدّدة.

كما يوضح أنّ رؤى كوندورسيه كانت مثاليةً أكثر منها واقعية، وتضمنت أفكارًا حول تذويب أو القضاء على (الأمم المتوحشة). فضلاً عن ذلك، يشير ميرل إلى أنّ القرن التاسع عشر شهد تحولاً في طبيعة معاداة الاستعمار، حيث أصبحت أكثر اعتدالاً وواقعية، وأنّ تقدم الديمقراطية أدّى إلى

١. المصدر نفسه، ص٦٢٤- ٦٢٩.

٢. المصدر نفسه، ص٦٣٠- ٦٤٠.

نقل النقاشات حول الاستعمار من المجال النظري إلى المجال السياسي، حيث أصبحت قضيةً مطروحةً في البرلمانات والأحزاب. ويشير إلى أنّ التوسع الاستعماري الكبير في هذه الفترة، وخاصة بعد عام ١٨٧٠، أدّى إلى تعقيد المواقف وتلطيفها. ويوضح أنّ التنافس بين القوى الاستعماريّة أسهم في تشكيل المواقف من الاستعمار. باختصار، يوضح ميرل أنّ معاداة الاستعمار مرّت بمراحل مختلفة، وأنّ القرن التاسع عشر شهد تحولاً نحو مواقف أكثر اعتدالاً وواقعية. والتوسّع الاستعماري والتنافس بين القوى الاستعماريّة أثّرا بشكلٍ كبيرٍ على مواقف معارضة الاستعمار. ممّا أدّى إلى ظهور معاداة استعمار معتدلة، تأثرت بالتطورات السياسيّة والاقتصاديّة[١].

كما يناقش مارسيل ميرل في هذا الجزء من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) تحوّل معاداة الاستعمار إلى تصفية الاستعمار في القرن العشرين. كما يشير إلى أنّ الاتحاد السوفيتي، بعد الحرب العالمية الثانية، استغلّ معاداة الاستعمار لخدمة مصالحه في مواجهة الغرب، وأنّ الدبلوماسية السوفيتية سعت لاستقطاب دول العالم الثالث. ويبين ميرل أنّ حركات التحرّر الوطني، التي شجعها ضعف أوروبا ودعم القوتين العظميين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي)، لعبت الدور الحاسم في إنهاء الاستعمار. ويشير إلى أنّ ممثلي المعذبين في الأرض هم من أطلقوا رصاصة الرحمة على الاستعمار. ويوضح أنّ محاولات لينين لتطبيق حلمه باءت بالفشل، وأنّ ستالين استغلّ الشيوعية لخدمة مصالحه. ويوضح كيف أنّ الأحزاب الشيوعية الوطنية كانت مقيدةً من قبل دكتاتورية الكومنترون[٢]. ويؤكد أنّه بعد الحرب العالمية الثانية، اتفقت مصلحة الاتحاد السوفيتي مع تحرّر البلدان المستعمرة. ويشرح كيف أنّ الاتحاد السوفيتي ساند حركات التحرّر الوطني في فيتنام وكوبا ومصر وغيرها. ويشير إلى أنّ الاتحاد السوفيتي تدخل في الحروب الأهلية في بعض الدول الأفريقية. باختصار، يوضح ميرل أنّ القرن العشرين شهد تحوّلاً جذريًّا في طبيعة معاداة الاستعمار، وأنّ حركات التحرّر الوطني، لعبت الدور الحاسم في إنهاء الاستعمار[٣].

---

١. المصدر نفسه، ص٦٤٠- ٦٥٠.

٢. اللجنة التنفيذية للمجمّع الشيوعي الإنترناسيوني الثالث، المعروف، اختصارًا، باسم (الكومنترن) comintern وهي لفظة مركبة من (كومونست) و(أنترناسيونال) communist international أي (الشيوعية العالمية). كانت الشيوعية الدولية، المعروفة أيضًا باسم الأممية الثالثة، منظمة دولية تدافع عن الشيوعية العالمية. قررت الكومنترن في مؤتمرها الثاني «النضال بتسخير كل الوسائل المتاحة، ومن ضمنها القوة المسلحة، لإسقاط البرجوازية الدولية وإنشاء الجمهوريّة السوفيتيّة الدولية كمرحلة انتقاليّة لإلغاء الدولة إلغاء كاملاً». كان الكومنترن عبارة عن نظام دولي مركزه موسكو، يجمع الأحزاب الشيوعيّة في جميع الدول، ويضع لها النظم ويرسم لها الخطط، ويراقب تنفيذها مراقبة دقيقة. يُنظر للمزيد: محمد عوض محمد، الكومنترن، مجلة الثقافة، العدد ٢٣٤، ٢٢ حزيران ١٩٤٣، ص١-٤.

٣. مارسيل ميرل، معاداة الاستعمار، (الاستعمار: الكتاب الأسود)، ص٦٥٠- ٦٥٥.

وفي كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) تتناول الكاتبة كاثرين كوكري- فيدروفيتش موضوع (مسلّمة تفوّق البيض ودونية السود)، في سياقٍ تاريخي، وتحلل كيف تطوّرت هذه الفكرة عبر التاريخ، وكيف استخدمت لتبرير الاستعمار والعبوديّة. حيث تشير الكاتبة إلى أنّ فكرة تفوّق البيض لم تكن موجودةً في العصور القديمة، حيث كان الفضول يتغلّب على الازدراء. وتوضّح أنّ الإغريق كانوا معتادين على البشرة السمراء، وأنّ أكثر عبيدهم كانوا من البيض. وتذكر بعض الكتابات القديمة التي تصف الأفارقة بطريقةٍ غريبةٍ ومخيفة، ولكنّها تشير إلى أنّ القدماء كانوا أقل اهتمامًا باللون من العرقيات. وتشير إلى أنّ المهم كان لديهم هو أن يكون المرء إغريقيًّا. توضّح الكاتبة أنّ فكرة تفوّق البيض تطوّرت في الغرب مع ظهور الاستعمار والعبودية. وتشرح كيف استخدمت هذه الفكرة لتبرير استغلال واستعباد الشعوب الأفريقيّة. وتستشهد الكاتبة بمقدمة جان بول سارتر لكتاب (المعذَّبون في الأرض) لفرانز فانون، حيث يدين سارتر الصمت الأوروبي عن الجرائم التي ارتكبت باسمهم في المستعمرات. باختصار، تقدّم الكاتبة تحليلاً تاريخيًّا لتطوّر فكرة تفوّق البيض، وتوضح كيف استخدمت هذه الفكرة لتبرير الاستعمار والعبوديّة[١].

وفي السياق ذاته، تشير الكاتبة إلى أنّ التقاليد اليهوديّة النصرانيّة لم تحسن الأمور، رغم أنّ الكتاب المقدّس لا يحمل في صميمه عنصريّة معادية للسود. وتذكر بعض الأمثلة من الكتاب المقدّس التي تدلّ على عدم وجود عنصرية، مثل زواج موسى من إثيوبية، وجمال سولاميت السوداء في نشيد الأنشاد. وتوضّح أنّ السود كانوا يستقبلون من قبل الكنيسة في القرون الأولى كغيرهم. والجدير بالذكر أنّ الكاتبة تشير إلى أنّ تجارة الرقيق الأسود كانت موجودةً منذ القدم، ولكنّها تنامت مع بروز تجارة الرقيق العربيّة. وتوضّح أنّ العرب في العصور الوسطى كانوا يستوردون عبيدًا سودًا بأعدادٍ كبيرة، وأنّ مصطلح (عبيد) أصبح مرادفًا للسود. وتبين أنّ الأدب العربي في القرون الثامن والتاسع كان يقرن البشرة السوداء بخصال سلبية. توضّح الكاتبة أنّ الأحكام المسبقة ضدّ السود تنامت مع بروز تجارة الرقيق، وأنّ هذه الأحكام استخدمت لتبرير استعبادهم واستغلالهم. وتذكر الكاتبة كاثرين كوكري- فيدروفيتش كتابات تاسيت وسالينوس[٢]، كأمثلة على الصور السلبية التي كانت تُستخدم لوصف السود، والتي أسهمت في ترسيخ فكرة تفوق البيض ودونية السود.

١. كاثرين كوكري- فيدروفيتش، مسلّمة تفوّق البيض ودونية السود، (الاستعمار: الكتاب الأسود)، ص٦٥٧-٦٥٩.

٢. كان تاسيت مؤرّخًا رومانيًا عاش في القرن الأول الميلادي. كان يفاخر بصفاء عرق الجرمانيين، ويشير إلى أنّهم حافظوا على صفاتهم الأصلية؛ لأنّهم تجنبوا الاختلاط بالأمم الأخرى. من خلال هذا التفاخر، كان تاسيت يوحي بأنّ الأعراق الأخرى، وخاصة السود، أقل نقاءً وأقل قيمة من الجرمانيين. وكان سالينوس جغرافيًا رومانيًا عاش في القرن الثالث الميلادي. وصف سود أفريقيا بـ(أبناء الزنا بين أبناء الزنا). هذا الوصف يحمل دلالات عنصرية واضحة، حيث يشير إلى أنّ السود منحدرون من أصولٍ غير شرعية، وأنّهم بالتالي أقلّ قيمة من الأعراق الأخرى. المصدر نفسه، ص٦٦٠- ٦٦١.

تشير الكاتبة إلى أنّ هذه الكتابات، وغيرها من الكتابات المماثلة، أسهمت في ترسيخ الأحكام المسبقة ضدّ السود، ومهّدت الطريق لظهور تجارة الرقيق والاستعمار. وتشير الكاتبة إلى أنّ البرتغاليين كانوا من أوائل من ابتكروا نظامًا للعبوديّة قائمًا على اللون، في جزيرة ساو تومي، وكيف تم استغلال العبيد السود في مزارع قصب السكر، وكيف تم تجريدهم من إنسانيتهم. في أشارة إلى أنّ أولى النظريات حول دونية السود تبلورت في هذه الفترة. كما تناقش الكاتبة كيف تم استثناء السود من القوانين التي تحمي حقوق الإنسان، وكيف تم تبرير استعبادهم. وكيف أنّ البابا نيقولا الخامس أصدر مرسومًا يجيز استعباد الأفارقة، وتذكر كيف أنّ شارل الخامس وملك البرتغال سيباستيان منعوا استرقاق الهنود الحمر. تشير الكاتبة إلى المفارقة التي شهدها قرن الأنوار، عصر النهضة، حيث تزامن ازدهار تجارة الرقيق مع ظهور أفكار التنوير. وتوضّح كيف أنّ فكرة التقدّم التي سادت في هذا القرن أسهمت في ترسيخ فكرة دونيّة السود. وكيف أنّ قرن الأنوار شهد تصلّبًا في المواقف تجاه العبيد السود، وتصاعدًا في العنصرية. وتوضّح الكاتبة كيف أنّ ازدياد أهميّة الإنتاج العبودي وازدياد أعداد العبيد أدّى إلى ترسيخ التمييز العنصري في الجزر. وتحت عنوان (نشوء العنصريّة المعادية للسود في فرنسا) تشير الكاتبة إلى كيف أنّ العنصريّة تصاعدت في فرنسا رغم أنّ الرق كان مرفوضًا فيها. وتوضّح كيف أنّ تزايد أعداد العبيد الذين يجلبهم أسيادهم إلى فرنسا أدّى إلى تشديد القوانين ضدّهم. وتحت عنوان (الأنوار والتفاوت بين بني الإنسان: الطبيعة مقابل الثقافة).

تشرح الكاتبة كيف أنّ فلاسفة الأنوار كانوا ينظرون إلى المتوحّش كرمز لحالة الطبيعة، وكيف أنّ هذا التصوّر كان يحمل في طياته ازدراءً ضمنيًّا، حتى أن بعض الفلاسفة، مثل هيغل، كانوا يرون أنّ غير الأوروبيين هم كائنات دونهم[١].

وحول دور الطبيعيين، تشير الكاتبة إلى أنّ العلماء الطبيعيين، مثل بوفون، أسهموا في ترسيخ مفهوم العرق، رغم أنّهم كانوا يؤكّدون على الأصل الواحد للبشر. ثم تشرح الكاتبة تحت عنوان (القرن التاسع عشر: اللجوء إلى علم التفاوتات العرقية) كيف أنّ نظرية داروين تم استخدامها لتبرير التوسع الاستعماري وترسيخ فكرة تفوّق العرق الأبيض. وكيف أنّ الداروينيين الاجتماعيين كانوا يرون أنّ من حقّ الأعراق المتحضرة أن تُبيد الأعراق المتوحّشة. كما تشير الكاتبة إلى أنّ الاستعمار أسهم في ترسيخ فكرة دونيّة السود، وكيف أنّ مؤتمر برلين ١٨٨٥-١٨٨٦، قد استثنى أفريقيا من حقوق الإنسان. وتوضّح كيف أنّ فكرة المهمة التحضيريّة استخدمت لتبرير الاستعمار والتمييز العنصري. كما تشرح الكاتبة كيف أنّ الإمبريالية الاستعماريّة أسهمت في ترسيخ فكرة تفوّق العرق الأبيض، وكيف أنّ المطامع الاقتصاديّة والتبشيريّة استخدمت لتبرير الاستعمار، وكيف

١. المصدر نفسه، ص٦٦١- ٦٧١.

أنّ المعارض الاستعماريّة وحدائق الحيوان البشرية أسهمت في ترسيخ الصور النمطيّة السلبيّة عن السود، وكيف أنّ السينما أسهمت في ترسيخ الصور النمطية السلبية عن السود، وكيف أنّها كانت تمجّد الاستعمار. مشيرة في الوقت نفسه، إلى أنّ بعض العلماء، مثل جون ستيوارت ميل، كانوا يعارضون فكرة التفاوت العرقي. وإنّ الحركة المعادية للعنصرية في فرنسا توقفت خلال الحرب العالمية الثانية، وكيف أنّ الولايات المتحدة بدأت في مراجعة مفهوم العرق بعد الحرب. كما تشرح الكاتبة كيف أنّ بعض علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية كانوا يعارضون فكرة المساواة بين الأعراق[١].

وفي الختام تشير الكاتبة إلى أنّ الأحكام المسبقة ضدّ السود ما تزال موجودةً في وسائل الإعلام وفي المجتمع بشكلٍ عام، وهي تركةٌ عنيدةٌ من الحقبة الاستعماريّة. وتذكر بعض الأمثلة على استمرار هذه الأحكام المسبقة، مثل معرض المتحف الملكي لأونتاريو في كندا[٢]. يتضح لنا من كلّ ما تقدّم أنّ فكرة دونية السود، تم ابتكارها وتطويرها لتبرير الاستعمار والعبودية، وأنّ العديد من الوسائل تم استخدامها لترسيخ هذه الفكرة، بما في ذلك الدين والعلم والأدب والسينما.

وفي نهاية هذا الجزء من كتاب (الاستعمار: الكتاب الأسود) تتناول الكاتبة نادية فوكوفيتس موضوع (التعويضات عن جرائم العبودية والاستعمار)، وتحلل النقاش الدائر حول هذا الموضوع. مشيرةً إلى أنّ المؤتمر العالمي ضدّ العنصرية الذي عقد في ديربان عام ٢٠٠١ اعترف بالرق وتجارة الرقيق كجرائم ضد الإنسانيّة. وتذكر أنّ فرنسا كانت من بين الدول التي تم ذكرها بشكلٍ خاص، حيث إنّها كانت أول دولةٍ أوروبيةٍ تعترف بمقترح قانون كريستيان توبيرا[٣]، الذي يعترف بالعبودية كجريمة ضدّ الإنسانيّة. ويصنف ما حصل في القرن الخامس عشر من تجارة عبيد مورست على سكّان أفريقيا، وهنود أمريكا، كجريمة ضدّ الإنسانيّة، ويعدّ هذا القانون قانونًا استذكاريًّا. توضّح الكاتبة أنّ التركيز في النقاش حول التعويضات ينصب بشكلٍ أساسي على تجارة الرقيق التي قام بها الأوروبيون عبر الأطلسي، وليس على تجارة الرقيق عبر الصحراء والشرق التي سيطر عليها تجار الرقيق العرب. كما توضح الكاتبة أنّ هناك مطالب متزايدة بتقديم تعويضات عن جرائم العبودية والاستعمار، وأنّ هذا الموضوع يثير نقاشًا واسعًا حول المسؤولية التاريخية والعدالة، وأنّ المطالب تتزايد من قبل المتضررين من هذه الحقبة الزمنية. وتوضّح أنّ هناك آراء متباينة حول ما إذا كانت التعويضات يجب أنْ تكون مالية، أو أن تتضمن أشكالاً أخرى من الاعتراف والتعويض، مثل تقديم اعتذاراتٍ رسميّةٍ أو

١. المصدر نفسه، ص٦٧٢-٦٨٧.

٢. المصدر نفسه، ص٦٩١-٦٩٣.

٣. كريستيان توبيرا سياسيّة فرنسية من (غويانا الفرنسية) انتخبت مرات عدة بالبرلمان الفرنسي، ونالت ولاية بالبرلمان الأوروبي، اختيرت وزيرة للعدل عام ٢٠١٢. مسيرتها السياسيّة اتسمت بالدفاع عن الحقوق والحريات ونضالها ضد العنصرية. الباحث

دعم مشاريع تنموية. باختصار، تقدّم الكاتبة تحليلاً للجدل الدائر حول التعويضات عن جرائم العبوديّة والاستعمار، وتشير إلى أنّ هذا الموضوع يثير نقاشًا واسعًا حول المسؤولية التاريخية والعدالة[١].

خامسًا: الخاتمة

من أهمّ النتائج التي يمكن استخلاصها من خلال قراءة هذا الكتاب ما يلي: يفنّد الكتاب الادّعاءات مثل (البعثة الحضارية)، أو (عبء الرجل الأبيض)، مُظهرًا أنّها غطاء لاستغلال الشعوب وتبرير العنصرية. ويشير إلى استخدام نظرياتٍ علميةٍ زائفةٍ (كالداروينية الاجتماعية) لتبرير التفوق العرقي.

يوضّح الكتاب كيف عمل الاستعمار على محو الهويّات المحلّية عبر فرض اللغات والأديان الأوروبيّة، وتشويه التاريخ المحلّي. مع ذلك، يذكر مقاومة الشعوب في الحفاظ على تراثها، وولادة هويّاتٍ هجينةٍ رغم القمع.

يربط الكتّاب بين الاستعمار القديم والاستعمار الجديد عبر الهيمنة الاقتصاديّة والسياسيّة، مثل ديون الدول النامية واستمرار عدم المساواة العالميّة والعنصريّة الهيكليّة.

بنظرةٍ فاحصةٍ للكتاب، يمكن القول بأنّ الكتاب يوثّق حركات التحرّر والنضالات المسلّحة والسلميّة التي قادت إلى الاستقلال، مع الإشارة إلى التحدّيات التي واجهتها الدول بعد التحرّر.

يطالب الكتاب بالاعتراف بالجرائم الاستعماريّة وتعويض الضحايا، معتبرًا أنّ العدالة التاريخيّة شرط أساسي للمصالحة الحقيقيّة، ويناقش الآثار النفسيّة مثل انعدام الثقة بالذات لدى الشعوب المُستعمَرة، مستندًا إلى أفكار مفكّرين مثل فرانتز فانون.

هذه الاستنتاجات تُبرز أنّ الاستعمار لم يكن مجرد فصل تاريخي، بل نظامًا متجذرًا من القمع لا تزال تداعياته تُشكّل واقعنا اليوم. الكتاب يدعو إلى فهم هذا الماضي لفهم التحدّيات الحالية، كاللامساواة والعنصرية، والسعي نحو عدالةٍ إصلاحيّة. بعبارةٍ أخرى، يفتح الكتاب آفاقًا بحثيّةً أمام الباحثين من أجل إعادة النظر والتعمق في قراءة ودراسة الاستعمار، بمختلف أشكاله وتأثيراته المدمرة على الشعوب المُستعمَرة على المدى الطويل.

١. المصدر نفسه، ص٧٧٥- ٧٩٥.